أحمد الخطيب

رواية

أطلِقوا الطَّير

أطلِقوا الطَّير

الطبـعة الأولـى : ٢٠١٦
رقــم الإيـــداع : ٢٠١٦/٢٦٧٩٢
الترقيم الدولـي : ٨-١٠-٦٥٥٤ - ٩٧٧-٩٧٨
تصميم الغـلاف : إسلام فريد
الإخراج الداخلي : ضياء فريد
المراجعة اللغـوية : محمود سلام أبو مالك

جميع الحقوق محفوظة ©

يمنع منعاً باتاً الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة أو النشر الإليكتروني أو التصوير الضوئي للمحتوى أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر والمؤلف ، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية طبقاً لحقوق الملكية الفكرية المنصوص عليها في القانون.

دار فهرس للطباعة والنشر والتوزيع
بنها – القليوبية – بطا – أعلى القرية الفرعونية
٠١٢٠٨٨٩٥٦٦٠
info@fyhres.com
www.fyhres.com

الإهداء

- إلى أخي الذي يستحل قتلي في اليوم مئة مرة، ولم يلوث بالدماء يديه.
- إلـى إخوتـي الذيـن ألقـوا بـي فـي غيابـة الجـب مخافـة أن يأكلني الذئـب أو أن أرهـق أبي.
- إلـى أخـي صاحـب التسـعة والتسـعين نعجة الـذي ما أخـذ نعجتـي إلا ليهاديني بالمئـة كاملة.
- إلى إخوتي الذين ما زالوا يظنونني عدوهم وأنا لا أحمل لهم سوى كل خير .

أحمد الخطيب

﴿وَمَـا مِـن دَآبَّـةٍ فِـي الأَرْضِ وَلاَ طَائِـرٍ يَطِيـرُ بِجَنَاحَيْـهِ إِلاَّ أُمَـمٌ أَمْثَالُكُـم مَّـا فَرَّطْنَـا فِـي الكِتَـابِ مِن شَـيْءٍ ثُـمَّ إِلَـى رَبِّهِمْ يُحْشَـرُون﴾. [الأنعام: ٣٨]

الساعة الأولى

في هذه الساعة الأولى من بداية رحيل الليل، وحلول غريمه النهار، كان النهار يحاول جاهدًا أن يفك قيده ويحرر نفسه من أيدي الليل ببطء وبدأ بالفعل يخلع عباءة الظلمة عن كتفيه ويرسل نسائمه إلى الطير أنفاسًا عبيرية لتوقظهم وتحررهم من سباتهم العميق، ويبعث بنوره كهدية إلى الطير الذين ظلوا طوال الليلة الماضية حبيسي أعشاشهم، إن كل ما أراده النهار هو أن يهب لهم الأمل، ليبصروا سعيهم، لتنعم أعينهم بما على الجزيرة من حياة هم غافلون عنها، لم يكن ليتخذ أجرًا على ما يمنحهم إياه.

وعلى الرغم من أن النهار كان متعبًا جراء اعتداءات الليل المتتالية عليه.. فإنه لم يستسلم ولم يرفع رايته.

لقد قاوم قدر ما أتيح له من قوة، واعتمد على نفسه رغم الضعف الذي أصابه والشيب الذي اعتلى رأسه ولم يطلب مددًا من أحد، بعد أن تخلى عنه كل من كان ينعم بضيائه، ويحظى ببركته.

وها هو يعود من موته شابًّا يانعًا، وكأن ما لاقاه في موته على يد الليل، لم يضره بسوء بل نفعه بأن عادت قوته ضِعْفَ ما انتزع منه، إن النهار لم يكن يحتمل فكرة أن ينظر في مرآته في الأونة الأخيرة، وكأنه كان في احتياجٍ إلى من يعتقله أو يقتله، ليعود إلى الحياة بالشكل الذي يفضل أن يكون عليه.

على سطح هذه الجزيرة المليئة بالحب والخيرات والنعم، في شرفة بيت قديم متهالكة ألوانه، كانت "رانسي" تقيم في قفصها، مثلها مثل كثير من الطيور المغردة الحزينة.

كانت رانسي عصفورة صغيرة الحجم، تتميز بلونها الأخضر وبتلك الحلقة الوردية التي تزين رقبتها وبمنقارها الأحمر القاتم الذي يميل إلى السواد في نهايته، أما رجلاها فكانتا بُنّيتَي اللون، وذيلها كان طويلًا وألوانه مزيجًا من اللون الأخضر والأصفر والوردي.

أيقظ رانسي نسيم الصباح العليل عندما هب نحوها في هدوء حاملًا في طياته رائحة وعبق المكان، وبدأت الطيور على الأشجار من حولها تشرع تُغنّي وتعزف الألحان، فما أجمل هذا اليوم الذي يبدأ بالموسيقى، كان ذلك على إحدى الأشجار التي كانت أمامهما، التي تكاد تصل بفروعها قرب قفصيهما هي و"بارون" العصفور صاحب القفص المجاور لها.

فتحت رانسي عينيها الناعستين ذواتَي اللون العسلي المائل قليلًا إلى الصفار، وخرجت من حجرتها الصغيرة الموجودة فى أعلى القفص الحديدي التي هي بداخله، هبطت من حجرتها إلى أسفل القفص، ومن ثم حركت جناحيها لتنفض عنهما الكسل ولتحرك الدماء الراكدة في عروقها، بسبب نومها الزائد في الفترة الأخيرة، غردت بصوتها الشجي وطغت – بسحره المفعم بالحياة والألم – على كل من

حولها، كان هذا هو لحن الصباح الذي اعتادته منذ أن وجدت نفسها حبيسة في هذا المكان الذي تكرهه، لكن الظروف التى مرت بها هي التي آلت بها إلى هذا المكان.

أما بارون فعصفور شرقي صغير الحجم مثلها، بني اللون وظهره كان مخططًا بخطوط سوداء، أما منطقة البطن كانت بيضاء وبها خطوط داكنة وكان في وسط صدره بقعة بنية قاتمة وذيله بني اللون أيضًا، وليس بالطويل، أما لون رأسه فكان يحمل من نفس الألوان التي اعتلت جسده.

وتمتد أصوله إلى شرق الجزيرة، وكان من عادته هو أيضًا أن لا يفيق من نومه إلا على صوت رانسي العذب.

كان تغريد رانسي مليئًا بالألم، وألحانها متناسقة ومختلفة ولم يشد بها طائر من قبل وكان ما يميزها أنها كانت تعزف بإحساسها بشكل فريد، كأن أحبالها الصوتية ما هي إلا أوتار جيتار نادر، لا يجيد أحد سواها العزف عليه.

كان بارون لا ينام جيدًا فمنذ اليوم الأول الذي رآها فيه عندما استيقظ من نومه ووجدها حبيسة القفص المقابل له، تعلق قلبه بها، فقد كان بارون يستيقظ دائمًا قبلها كعادته، لكنه في الفترة الأخيرة كان لا يخرج من حجرته، القابعة في قفصه، حتى يسمع شدوها المميز، فتطرب أذناه وتهدأ روحه.

ومـن ثـم يسـتقبل يومـه الجديـد بابتسـامة مشـرقة، فيخـرج مـن حجرتـه منتشـيًا مـن سـحر صوتهـا، حتـى أنـه كان لا يخـرج قبـل أن تنتهي مـن وصلتهـا حتـى لا يقاطعهـا فيسـتمتع بشـدوها وهـي تغنـي.

هبـط بـارون إلى أسـفل القفص وأطلـق عينيه البنيتيـن نحوها في لهفـة، ومـد رأسـه من بيـن القضبان لينعم نظـره بها.

ورغـم أن قضبـان القفـص كانـت مزعجـة لـه وكانـت تعزلـه عنهـا وتمنـع كل منهمـا أن يلتقـي بالآخـر، فإنها كانت لا تعـوق النظر أو تحجب الرؤيـة عنـه، فقـد كان يشـاهد مـن خلالها كل شـيء.

ألقـى بـارون تحيـة الصبـاح عليهـا، لكن رانسـي لم تلق بـالًا له في هـذا اليـوم، بـل كان نظرهـا شـاردًا نحـو بـاب قفصهـا فـي صمـت غريب، كانـت مشـدودة الانتبـاه على غيـر عادتها.

كان يعلـم بـارون أنهـا كانـت دومًـا مـا تنظـر إلـى الباب علـى أمل خروجهـا مـن هـذا السـجن كمـا كانت تسـميه، كانـت تظن أن هـذا الباب هـو الـذي يفصلهـا عـن الحياة التـي تحلم بأن تعـود إليها، وكانـت تظن أن المـوت أفضـل بكثير مـن هذا العنـاء والوحـدة والألم.

أشـارت إلـى بـارون بجناحهـا الأيمـن نحو البـاب، في محاولـة منها أن تقـول لـه: انظـر إليه.

تقدمت رانسي نحو الباب ظنًّا منها أن الباب تُرك مفتوحًا لها، وعندما اقتربت منه إذا هو كذلك، وبمجرد أن مدت منقارها وسحبت الباب في هدوء، تبين لها حقيقة الأمر، الذي جعلها في غاية السعادة والفرح.

أحست رانسي أن بارون لم يصدق ما شاهده، وشعر بارون أن شعورًا غريبًا يسري في دمه يتجمع ثم يصب حزنه شلالًا فوق قلبه المرهف، وحدث نفسه قائلًا: ها هي رانسي ستذهب وتتركني وحدي، وعن قريب سأعود إلى وحدتي وألمي دون أنيس يشاركني تلك اللحظات المريرة الباقية من عمري، التي أعيشها كل يوم رغمًا عني في هذا القفص المزعج.

قاطعت رانسي أفكاره المشتتة بندائها عليه، وبدا على وجهها أن الحياة قد دبت فيها من جديد، فازدادت إشراقًا وبهجة وضياء، أكثر مما كانت عليه من قبل.

وقالت له:

- إن الباب قد ترك لي مفتوحًا انظر إلى بابك لعله هو الآخر كذلك.

نظر بارون إلى الباب وتقدم نحوه وهو يظهر لها أنه على يقين بداخله أن الأبواب الموصدة لا تفتح بين يوم وليلة، لكنه لم يتردد أن يذهب إلى الباب ليريها أنه ليس شرطًا أن يحدث معه ما قد حدث معها، فلما تقدم نحو الباب، وتمعّنه جيدًا، نادى عليها قائلًا: ألم أقل لك: إنه مغلق.

خرجت رانسي من قفصها، وطارت نحو باب قفصه، ووقفت أمام بابه ونظرت إلي بارون، ثم دفعت الباب بمنقارها الصغير، ففتح على مصراعيه.

تصلب بارون مكانه، وتصبب عرقه، وكأنه لم يكن متوقعًا ما رآه بعينيه.

لم تعتد رانسي أن تراه بهذه الحالة من قبل وكأن هناك شيئًا ما يحاول أن يخفيه عنها ولا يريد أن يبوح لها به.

وقفت رانسي على عتبة باب القفص وقالت له: ما الذي يجعلك متسمرًا هكذا في مكانك؟! هيا اهرب من هذا الجحيم!

ظل بارون على حالته مشدوهًا تائهًا كأن رانسي لم تقل شيئًا.

وعلى الرغم من أنه سمعها فإنه لم يتفوه بنصف كلمة ونظر إليها نظرة غريبة واعتراه صمت زاد من ارتباكها.

ثـم أدار وجهـه عنهـا وولاهـا ظهـره وتقـدم خطوتيـن فـي الاتجـاه المعاكـس للبـاب.

اسـتغربت رانسـي ردة فعلـه، فقـد كانـت تظن أنه سـيكون أسـعد منهـا فـي تلـك اللحظـة، لكنـه خيـب ظنهـا بـردة فعلـه تلـك، لـذا تقدمت خلفـه داخـل القفـص وسـألته: مـا الأمر؟

رد بارون قائلًا بعد أن أدار وجهه إليها:

– الأمـر أننـي لـم أعـد قـادرًا علـى الطيـران، لقـد مر وقـت طويل وأنـا حبيـس هـذا المـكان حتـى تقـدم بـي العمر كمـا ترين.

كان بـارون دائمًـا مـا يعتقـد أنـه أصبـح كبيرًا فـي العمـر، ولم يعد قـادرًا علـى العطـاء، لعلـه لـم يكـن يعلـم أن الشـجرة الطيبـة لا تكف عن العطـاء مهمـا طـال بهـا العمـر، وأن في اسـتطاعتها حتـى آخر يـوم لها، أن تهـب لمحبيهـا ثمارَها الشـهية وظلهـا الممتد.

هكـذا حاولـت رانسـي أن تثبت له لكـن ما اعتاده فـي هذ المكان ليـس هيّنًـا عليـه أن يتركـه، وأن مـا تجرعـه كل يـوم مـن ألـم، قـد أدمنـه، وكان ذلـك كافيًـا لأن يهـدم بداخلـه أكثر الأشـياء جمالًا.

إن الأشـياء التـي لـم تُبـنَ على أسـاس جيـد معرضة إلى أن تسـقط أرضًـا مـن أقـل شـيء، وإن مـا بُنـي علـى أسـاس جيـد لن يتأثـر كثيـرًا وإن أصابـه بعـض الشـروخ فقـد يسـهل ترميمـه وإعـادة تأهيله مـرة أخرى.

استاءت رانسي مما سمعت منه ولم تكن تعلم أن بعض الطيور ممن يسعون إلى أحلامهم ويركضون خلفها دون توقف، قد لا يستطيعون أن يمدوا أجنحتهم عندما يتفاجؤون بأن أحلامهم أصبحت نصب أعينهم.

- إن بعض من ظلت أعينهم لا ترى نور الشمس لفترة، يصابون بالعمى إذا نظروا إليها مرة واحدة.

لم تقتنع رانسي بهذه المقولة التى صدح بها بارون، فهي على قناعة بأن هؤلاء الذين يرون الأشياء بوضوح في الظلام الحالك، هم أولئك الذين في استطاعتهم أن يروا الأمور أكثر وضوحًا بالنسبة إليهم عن غيرهم.

لكن الأمر أصبح مختلفًا تمامًا كما بدا لها وفوجئت به، وكأنما تراه لأول مرة وتعرفه، لقد تحدثا كثيرًا في الأيام السابقة، كانت وعود بارون لها إنْ تُعد فلا تحصى، فقد كانت كلماته بالنسبة إليها نهرًا عذبًا ينهال عليها كلما عطشت ليرويها، فمنذ اللحظة التي أصبحت فيها معه لم ينتَبْها يومًا هذا العطش الذي كانت تشعر به من قبل.

لذا استغربت وتساءلت في نفسها: ما الذي حدث له؟ وما الذي جمد هذا النهر المتدفق، ووقف شريان حياته تجاهها؟ ومن وضع هذه السدود وأقام هذا السور الذي تراه الآن حائلًا بينهما؟ وما هذا الشيء الذي حجب عنها رؤيته حتى صار أمامها ولا تكاد تراه؟!

– تبًّا للأحلام التي نتمادى فيها دون سعيٍ حقيقيٍّ منا إليها، كان هناك حلم يراودني ولا يكف عن المجيء إلى مخيلتي ولم أستطع أن أتخلص منه، كنت أراني أمد أحد جناحي إلى الطعام وأتناوله إلى فمي، دون مهانتي في الانحناء برأسي إليه بمد منقاري، لكي ألتقط بعض الفتات الذي يلقي به سيدك إلينا، لكني عندما حاولت وفشلت مرارًا ووجدت أنها مجرد أضغاث أحلام، لم يكن مجرد حلم يدفعني إلى السعي وراءه قدر ما كان يصيبني بالإحباط وخيبة الأمل، فيشغلني بذلك حلم مزيف، عن حلم حقيقي قد يكون في استطاعتي تحقيقه، حلم تستطيع أن تغرس بذرته وتجني ثماره في موسمه المحدد له، لذا علينا أن نحلم بأحلام تتوافق مع قدراتنا لا مع خيالاتنا التي لا حدود لها.

بعد أن انتهت رانسي من هذه الكلمات التى لم تحرك فيه ساكنًا، اقتربت منه قليلًا ونظرت إلى عينيه الحزينتين وحاولت بنظرتها أن تسكن الألم الذي كانت تراه يطل من شرفة عينيه، ويحدق إليها كأنها غريبة عنه.

لكن نظراتها التي أصابت هدفها لثوانٍ معدودة سرعان ما عادت خاوية اليدين بل أصبحت نظراتها إليه سكينًا تركته في قلبه وبدلًا من نزيف الدمع الذي كان يسكنها، أصبح هناك بحور من الدماء لا حصر لها.

بارون في تأثر شديد يطلب منها أن تذهب وحدها فهذه فرصتها وقد لا تتكرر لها، إن ظلت متعلقة به.

لكـن رانسـي كانـت مصـرة علـى أن لا تخـرج دونـه، قبـل أن يحـل الظـلام عليهمـا، أو أن يأتـي سـيد البيـت علـى غيـر موعـد منـه، فيمسـك بهمـا ثانيـة فـلا ينـالان الحريـة التـي طالمـا سـعت خلفهـا.

فتعود بذلك من جديد لهذه الحياة المملة، إلى قليل من الحَّب والماء وقضبان تحيط بها من كل جانب، وباب محكم إغلاقه.

أثـار غمـوض بـارون مـن فضولهـا لمعرفة مـا يخبئه عنهـا، وما هذا الشـيء الذي تسـبب فـي أن يجعلـه مكتوف الجناحيـن هكذا.

لقـد كانـت تـراه مبتسـمًا وحـرًّا طليقًـا بيـن القضبـان فـي الأيـام الماضيـة، ولكنهـا الآن ترثـى لحالـه منـذ أن فُتـح هـذا البـاب أمامـه.

رانسـي كانـت تعلـم القليل عـن الطيور في شـرق الجزيـرة وتعلم أن الطيـور غـرب الجزيـرة ليسـوا كمثـل مـن فـي شـرقها فكمـا أن لـكل منهمـا اتجـاه مختلـف، كذلـك الفكر لا بد أن يكـون مختلفًا، فـإن اختلفت الاتجاهـات فمـن الطبيعـي أن يختلـف الفكـر أيضًا.

و هنـاك طبـاع مختلفـة وعـادات وموروثـات لـكل فصيـل، فـكان هنـاك بعـض الطيـور الشـرقيين المهاجريـن ممـن رأتهـم رانسـي في غرب الجزيـرة، حيـث كانـت هنـاك وقتهـا، لكن لم يكـن يعنيها أمرهـم كما هي الآن، ولـم يكـن فضولهـا يدفعها لتعرف شـيئًا عنهـم، وكان ما تعلمـه يقينًا،

أن كل مهاجر حتمًا سيعود إلى موطنه بعد نهاية الموسم الذي فر منه، لأنه لم تكن أجسادهم وريشهم بالكثافة التي تمكنهم من البقاء العام كله، فليس فيهم من يستطيع أن يتحمل البرد القارس والثلوج المتساقطة.

وعندما هربت رانسي من غرب الجزيرة في ذاك اليوم المشؤوم ووصل بها الأمر إلى هذا المكان الشرقي الذي يقع بالقرب من الجزيرة من ناحية الغرب، ووجدت نفسها بين ليلة وضحاها حبيسة هذا القفص المحكم إغلاقه، لم يكن هناك سوى بارون يبعث في روحها الأمل، ويدب فيها الحياة.

مما جعلها تعيد النظر في أمور كثيرة، فبدأت تغني وتشدو بعد أن انقطعت فترة، ثم عادت لتستقبل الحياة بروح مختلفة عن تلك التى أتت بها، وأبعدت عن رأسها فكرة الانتحار التي كانت دائمًا ما تراودها.

أما بارون فلقد كان الخوف يسيطر عليه ويفرض جيشًا من صنعه لا حصر لعدده، ليهاجم كل فكرة تطرأ عليه، إن الوحدة جعلت منه طائرًا صلبًا عنيدًا، لذا كان غريقًا دائمًا في أفكاره المتلاطمة الأمواج، وكان كلما أبحر بداخله لم يصل بجسده إلى منتصف مياهه الضحلة.

إن الوحدة قد سلبت منه جرأته وشجاعته، لذا هو الآن أسير جبنه في إطلاق سراحه، فالقيود لم تكن في هذا القفص الذي كان يحتويه، بل كانت في تلك القيود التي صنعها بنفسه وكبل بها روحه، إذ إن روحه التائهة هي التي ضيقت عليه دائرة افكاره، فهو الذي وضع نفسه في هذه المتاهة التي هو بداخلها الآن، وها هو ذا ما زال يبحث عن مخرج لينجو ويعود إلى نفسه قبل مرور الوقت المسموح به، كان يسلك الطريق الواحد أكثر من مرة، ظنًّا منه أن الطرق قد تتبدل وتتفتح من تلقاء نفسها، فيصل سريعًا إلى منتهاها دون عناء في قطع المسافة الحقيقية والوقت المطلوب الذي يحتاج إليه ليصل بها إلى غايته.

الخوف أحكم قبضته عليه، واستولى على أفكاره، ورفع راية النصر فوق ما تبقى من أطلال جسده الضعيف، بعد أن أسر بنفسه قادته ممن كانوا يقودونه إلى النور، وجعلهم عبيدًا عنده يعملون في صمت، تحت جور الظلم، وبين أنفاق الظلام.

رانسي لم تتخلَّ عن فكرة إقناعه بالخروج، كانت تريد أن ترد جزءًا ولو بسيطًا، مما تفضل به عليها.

و قالت تسأله بصوت يملؤه الرقة والهدوء: مَمَّ تخاف وأنا معك؟!

رد عليها وهو يحاول أن يظهر لها أن ثقته بنفسه لم تهتز وقال إنه فقط يحتاج إلى مزيد من الوقت، فهو على حد قوله لم يكن يظن يومًا أن ذاك الباب سيفتح من تلقاء نفسه، كان كل ما يشغل عقله، هو أن يخرج من هذا القفص، لكن لم يأت في خاطره ماذا عليه أن يفعل بعد ذلك؟! لطالما أراد أن يستخدم قوته هو في فتحه، وقال إنه حاول كثيرًا ولكنه لم يفلح في ذلك، فالحديد بطبيعته أقوى من جسده الضعيف.

وكان قد اتخذ عهدًا بينه وبين نفسه، أن لا يخرج من هنا حتى يكسر هذا الباب بنفسه، وقال إن هذا سوف يؤهله للمرحلة التي تليها، وأتت أمام عينه لحظة ولادته عند خروجه إلى الحياة من بيضته، التي لم يكسرها سواه، دون مساعدة من أحد، وتذكر وقتها كيف كان أبواه رافعين قامتهم وفخورين به وقتها، دون أن يساعده أحد منهما، كان ذلك بالنسبة إليه، هو الاختبار الأول الذي سوف يحدد مصيره، فالمسألة كانت بالنسبة إليه مسألة حياة أو موت.

فالطائر الذي ينتظر في بادئ الأمر مَن يمد له يديه ليساعده، هو ذاك الذي سيعيش عمره كله ينتظر مساعدة الآخرين له.

كان لا يتحمل بارون هذه الصورة التي كانت تأتي إلى ذهنه من آن إلى آخر، عندما كان قليل الحيلة في الساعات الأولى من ولادته، فقد كان لا يحمل على جسده الضعيف ريشة واحدة، لتخفف عنه من وطئة الشمس بالنهار، وتقلل من قسوة البرد في الليل، لكنه استبدل ذلك بحضن أبويه، فكانا هما الظل والدفء معًا.

و مـن المتشـابهات فـي هـذه الحياة أن لـكل شـيء ولادة، وأن كل ولادة تبـدأ بضعـف ثـم عجـز مـن بعد قـوة ثم نهايـة حتميـة للجميع.

كذلـك هـي الأشـجار فـي بـادئ الأمـر وهـي نبتـة صغيـرة عليها أن تصـارع وتنفـض عنهـا حجـم التربـة التـى يعتليهـا، كالـدودة من الشـرنقة، والمطـر مـن بطـن السـحاب والأسـنان فـي الفـم وإن كانـت الطيـور بـلا أسـنان، والجنيـن مـن الرحـم، وفـي آخـر المطـاف لا يقـدر لـه الحيـاة إلا مـن اسـتطاع فقـط أن يثبـت قدرتـه وذاتـه منـذ اللحظـة الأولـى لميـلاده، فـكل مـا علـى الحيـاة وإن اختلـف فـي الشـكل فثابت فـي الجوهـر، وإن القوانيـن والمعـادلات ثابتـة لأكثـر الأشـياء، وتطبـق علـى الجميـع، وبـلا اسـتثناء بـلا زيـادة أو نقصـان، فـالأرض تنبـت بالشـجر فتزينهـا، وكذلـك الريـش فـي الجسـد، والنجـوم فـي السـماء، والثمـار مـن الشـجر، والأمثلة كثيـرة لمـن يتدبـر وينظـر حولـه، فهنـاك الأسـد فـي الحيـوان، والنسـر في الطيـر، والقـرش فـي الأسـماك، فمبـدأ القوة ثابت فـي جميـع المخلوقات.

وكل مـن بـارون ورانسـي كانـا يحمـل معتقداتـه وأفـكاره فكانـا يتقابـلان بفكرهمـا أحيانًـا، ولكنهمـا في أكثر الأوقات كانا كأي اثنين يشـتد بينهمـا الحـوار تـارة ويليـن تارة أخرى، كان يتشـبث كل منهمـا برأيه ويرى كل واحـد فيهمـا أنـه علـى صـواب وكان دور كل منهمـا أن يقنـع الآخـر بفكـره ونظريتـه فـي الحياة.

فكل منهما يحمل ثقافة نشأته، التي استمدها من حياته المختلفة، فـ رانسي تلك العصفورة الشابة الجريئة كانت تعيش حياتها بحرية كاملة تفعل ما تشاء وقتما شاءت، لم يكن يهمها سوى تلك اللحظة التي تعيشها، لم تعطِ أمرًا أكثر من حجمه، وعلاقاتها كانت سريعة وإن لم تثمر عن أي نجاح.

فقد كانت تتمادى في رغباتها بلا قيد، حتى أصابها ما أصابها في الحادثة الأخيرة التي ألمت بها.

أما بارون فكانت حياته مقتصرة على هذا المكان الذي هو به، وكان عمله الغناء وكدُّه الشدو، فكان يشدو بآلامه ليسعد سيّده الذي اعتنى به فكانت نغماته متناسقة ورتيبة وتحرك كل ساكن حوله من الجمال الذي كان يفيض مِن حوله.

وكان يجتهد بالغناء لتحصل زوجته البعيدة عنه، هي وطفلاهما، على ما يكفيهم من حاجة ليسد رمقهم وجوعهم ويجبر كسرهم. وكلما ازدادت آلامه حسُن صوته وزاد شجوه ونالت زوجته مما يجنيه من سيده بعض الخير الذي يرسل به إليهم، جزاء منه لما يقدمه إليه، وقد كانت روح بارون متعلقة دائمًا بهذه الأيدي التي تطعمه، فقد كان ما يحز في نفس بارون هو أمر زوجته التي أبعدها عنه سيده لأمر لا يعلمه، ولكنه لم يجزع لذلك وحاول أن يتأقلم مع الوضع الذي هو عليه.

أما رانسي فكانت على عكس بارون، إذ ترى أن من أراد أن يمتع نظره وسمعه بنا، وجب عليه إطعامنا، وإلا فلِمَ احتفظ بنا؟!

كان بارون دائمًا ما يردد تلك العبارة البائسة:
– ماذا يريد العصفور منا سوى مكان آمن وغذاء وافر وقليل من الماء العذب؟!

كان كثيرًا ما يحاول أن يقنع نفسه بأفكاره المحدودة لكي لا يلجأ بالتفكير في أشياء أخرى، تحمله أكبر من طاقته.

لم تأت الفرصة إلى بارون أن يخبر رانسي بحقيقة أمر زواجه،

فقد اضطر أن يخبئ عنها هذا الخبر، خشية أن يزعجها ذلك الأمر، فتبتعد عنه قبل أن تتعلق به هي أيضًا.

لكن بارون استغرب من ردة فعلها، عندما أخبرها بأمر زواجه، بل لم ير منها أي ردة فعل واحدة تعطيه سببًا واحدًا في أن تجعله يخبئ عنها هذا الأمر طوال الأيام الماضية.

تقبلت رانسي الأمر وحدثته بأنها أيضًا لها ثلاثة أطفال من زوجيها السابقين لكنها لا تعرف أين هم الآن، وقالت – وكأنها لا تكترث لأمرهما-: أظنهم سعداء دوني.

ومـن ثـم توقفـت عـن الحديـث عندمـا وقـع نظرهـا علـى التـاج الـذي صنعـه لهـا بـارون فـي قفصـه وتذكـرت وقـت أن وعدهـا بـه، فـي يومهـا الأول.

فكانـت الريـح كلمـا هبـت علـى قفـص بـارون، أتـت معهـا ببعض مـن أوراق شـجرة السـدر التـي كانـت أمامهـم، فـكان منهـا مـا يصطـدم بالقضبـان فيسـقط خارجـه ومنهـا مـا يعبـر إلـى قفصـه.

وكان مـن عـادة بـارون أن يجمـع هـذه الأوراق الصغيـرة، ويصنـع منهـا أشـياء مفيـدة، ليهـادي بهـا أحِبَّته.

مـدت رانسـي جناحيهـا إلـى التـاج وقامـت بحملـه وطلبـت مـن بـارون أن يضعـه علـى رأسـها، لكنـه رفـض وطلـب منهـا أن تنتظـر حتـى يـأذن لهـا، وقـال لهـا: "هو لك". وشـدد عليها بـأن تحافظ عليـه وألا تفقده أو تحـاول أن ترتديـه حتـى يـأذن لهـا.

استغربت بشدة ما قاله، ولكنها سلمت لشروطه على مضض وقالت في نفسها: "إذا كان في نهاية الأمر سيكون لي فلمَ العجلة إذًا؟".

قبلـت رانسـي التـاج ثـم قامـت بوضعه فـي مكانـه، دون أن تبدي أي غضـب، ولـم تتفـوه بكلمـة ثـم أدارت وجههـا إليـه ونظـرت إلـى عينيه البريئتيـن، وهـي تبتسـم وقالـت لـه: أنا معـك حتـى النهاية".

الساعة الثانية

بـدا النهـار يتضـح أكثر ويؤكد وجـوده في كل مكان علـى الجزيرة، بعـد أن نشـر قوتـه لمحاربـة آخر ما تبقى مـن جند الليـل، فالمعركة دائمًا كانت محسـومة لصالحه في هـذا الوقت.

فالوقت وقته والنهار نهاره، فقد كان النهار يرد الصفعة التى وجهها له الليل في الليلة الماضية بكل قوة، صراع دائم منذ عهد غير معلوم وتشابه آخر بين كل ضدين في هذه الحياة. فكل منهما معرض للهزيمة وقابل للفوز، كل له الحق في أن يعتلي الآخر لفترة من الزمن، كعلاقة الحق والباطل، والعدل والظلم، والخير والشر، والحب والكراهية.

صـراع أزلـي ليدفـع بعجلـة الحياة ويعطـي كل ضديـن الفرصة في أن يثبـت كل منهمـا كفاءتـه في قبحـه وجماله.

فقواعـد الكـون ثابتـة بنيـت على هـذه القواعـد، وأي خلل بسـيط فـي القاعـدة سيسـفر عن نهاية حتميـة للجميع. لذا يجـب أن يكون هناك عـدو ليفتخـر الآخر بنفسـه عندما ينتصـر عليه.

اقتربت رانسي من بارون في محاولة منها لضمه إليها، لطالما كانت تنتظر لحظة لقياه لتأنس به عن قرب، لقد سمعت في الماضي من إحدى صديقاتها التي أخبرتها عن بعض عادات طيور شرق الجزيرة، بأنهم أشد حرارة من الطيور في غربها، وأن هذا الموعد من السنة قد يوافق موسم التزاوج، وفيه يكون الذكر منهم في رغبة عارمة، تجاه وليفته الأنثى.

إن الراحة النفسية التي يحصل عليها كل عصفور بعد كل لقاء حميمي تجعله أكثر سعادة ونشوة وقد تقلل من آلامه وأوجاعه فتكون بمثابة الملاذ والسكن، بل تخلصه أيضًا من مشاكله وأفكاره السيئة وتجعله ينام هنيء البال.

كانت رانسي تعلم بكل هذه الأشياء وتحفظها عن ظهر قلب، وكل ما كانت تحتاج إليه فقط هو بعض التمهيد والتخطيط الجيد لينم عن نتائج مقبولة.

ظلت رانسي تنظر إلى عينيه بشغف، وتحدثهما بصمت، ترسل إليه بأهدابها رسائل عشق ممزوجة بحنين ورغبة، وتتعمد أن تجعل من أنفاسها عطرًا فريدًا لتجذبه إليها.

إن كل أنثى تظن أن هذا هو سلاحها الأقوى، وعلى كل من صوّب نحوه أن يستسلم دون أي مقاومة منه، لقد جربته كثيرًا من قبل فيما مضى وكان دائمًا ما يحقق نجاحًا هائلًا، ومن ثم تساءلت في نفسها:كيف له أن يرفض هذا العرض المغري وهذا الطغيان الأنثوي؟

أدار بارون وجهه عنها عندما علم ما يجول في خاطرها وقال في غضب:

كفي عن تلك الحماقات، وحاولي أن تجددي من أسلحتك وتطوري من نفسك، إن الجزيرة تتطور من حولك!

أزعج رانسي ما سمعته منه وشعرت بأنه قد قلل من شأنها في عينيه. ولأنه ما هربت فريسة من يد صياد إلا وأثارت غضبه، وجعلته أكثر رغبة في الحصول عليها، مهما تكلف الأمر من جهد وعناء.. أقسمت رانسي بداخلها بعد أن شعرت بحرج شديد من ردة فعله التي لم تكن تتوقعها منه، أنها ستجعله يركع لها ليحصل على نصف نظرة منها، وأنها ستفتت هذا الحجر الذي يختبئ خلف أضلعه ويُسمّيه القلب.

نظرت رانسي أسفل قدميها بعد ما اعتراها الخجل، ثم أدارت وجهها قليلًا عنه وطلبت منه أن يخرج معها الآن وإلا ستذهب هي وحدها ولن تعود إليه ثانية.

اعتذر لها بارون عما صدر منه، وحاول أن يقنعها بأن هذا الباب المفتوح ما هو إلا فخ لهما، وأن سيده ما ترك هذا الباب مفتوحًا إلا لكي يختبرهم به، وأنه لا يجب أن نتركه في أول فرصة تأتينا فنهرب، وإن كانت الأبواب فتحت من أجلنا دون غيرنا ممن حولنا في الأقفاص المجاورة، فلمَ الآن؟ ولما اختصّنا نحن فقط بذلك؟

كانت التساؤلات تنهال على رأسه بكثافة ولم يكن هناك ملجأ منها ليحتمي به.

أجابتـه رانسـي في هدوء وقالت: عسـى سـيدك أن يكـون قد اطّلع علـى مـا فـي قلبَينـا، وعلى مـا يحمله كل منـا للآخر من حب، لـذا تركه.

وكأن كلماتهـا لـم تـروِ عطشـه فقال: لـو كان ذلك صحيحًـا لوضعنا معًـا فـي قفص واحد لفترة اختبـار ليتأكد هل لهذينِ الغريبينِ أن يتعايشـا معًـا، ولكنه لـم يفعل ذلك.

و استرسـل بـارون قائـلًا: إن أجسـادنا ضعيفة وهزيلـة ولا طاقة لها أن تصمـد أمـام عواصـف وأمطـار الجزيـرة، فالحيـاة متقلبـة فـي الخـارج، ودائمًـا مـا تفاجئنـا بعكـس توقعاتنـا. ففـي كل شـبر علـى الجزيـرة فخوخ منصوبـة، حتـى مـن بعـض الذين ليس لهـم حاجة إلينـا، الـكل يعمل على أن لا يتـرك أحـد منـا يحيـا في أمـان مطلق.

أحسـت رانسـي أنهـا أمـام كتلـة ثلـج فكريـة متجمـدة منـذ زمـن بعيـد فـي بلـدة لـم تـر الشـمس يومًـا، ولإذابـة هـذه الأفـكار والهواجـس، قـررت أن تصـوب شـمس أفكارهـا نحـوه، بـكل مـا أوتيـت مـن قـوة، وأن تضاعـف أشـعتها علـى مـكان واحـد، حتى تحـدث فيه ثقبًـا، فـإن اخترقته اسـتطاعت بعدهـا أن تصـل بنورهـا إلـى أعماقـه المظلمـة، ومـن بعدهـا سـيقوم هـذا الكائن الميـت من نومه العميـق بإرادته، وسـينفض عنه هذا الثلـج بنفسـه، وسـيفتح جناحيـه ليسـتقبل الـدفء والحيـاة، بـكل شـغف، قبـل أن تغـرب الشـمس وتولـي وجههـا عنـه إلـى الأبد.

عرضت رانسي فكرة أن تظل معه حتى يأتي سيده، فيراهما معًا في مكان واحد، توقعًا منها أنه سيفعل أمرًا من أمرين، إما أن يطلق سراحهما مكافأة لهما على تمسكهما به، وإما أن يتركهما معًا ليهنأ كل منهما بالآخر.

لكن الاحتمال الثالث الذي غاب عنها وذكرها به بارون هو أنه قد يغلق الباب عليهما بعد أن يعزلهما كل في قفصه، ليعودا إلى الحياة نفسها.

و بهذه الطريقة كان بارون يطفئ كل شمعة كانت تحاول بها رانسي أن تنير بها ظلامه، وهذا ما جعلها تزداد حيرة من أمره، وتتساءل: لمَ أنا باقية معه؟

أدارت وجهها في صمت وخطت بداخل القفص في اتجاه شجرة السدر المقابلة لهما ثم أطلت برأسها من خلال القضبان.

وأبهجها أنها رأت بلبلًا يشدو ويرقص مع حبيبته، فتمنت أن لو كانت هي تلك العصفورة السعيدة التي معه، فتجد من يعاملها بهذا القدر من الحب والعطاء.

كان بارون يقف خلفها ويتابعها بنظره، فعلم من تنهيداتها ما يدور في رأسها في هذه اللحظة.

كان يعلـم أن هذه هي أكثر الأشـياء التـي تتمناها كل أنثى، بمجرد أن تـرى عصفـورًا يتعامـل مع أنثاه بهـذه الطريقة، تلعن حياتهـا، وكأنها لم تحـظ مع حبيبها بأحسـن من ذلـك يومًا.

إن مـن يحكـم علـى الأشـياء بظاهرهـا عليـه أن يكـون عـادلًا بعض الشـيء فليـس كل مـا نـراه أمـام أعيننـا حقيقيًّا، قـد يكـون هنـاك خلفيـة للأشـياء لا نعلمهـا قـد تقلـب كل الموازيـن.

اقتـرب بـارون مـن أذنيهـا وقال لهـا: أتعلميـن أن هـذا الطائر الذي ترثيـن لحالـك بأنـك لسـت معـه الآن، خائـن؟ وأنتـي تعلميـن جيـدًا مـاذا تعنـي الخيانة!

شـرح بـارون لرانسـي بطريقتـه التـي كانـت أكثـر الأشـياء التـي جذبتهـا إليـه.

و حدثهـا عـن "محـب" ذلـك البلبـل الخائـن، وكيـف كان كل يـوم يواعـد عصفـورة جديـدة غيـر تلـك التـى كانـت معـه بالأمـس، وأن زوجته المسـكينة "درة" لا تعلـم بأمـره حتـى الآن، فهـي تذهـب فـي كل صبـاح قبـل أن تبـدأ الطيـور فـي السـعي علـى أرزاقهـا، لتجمـع لـه الطعـام الذي يشـتهيه، ثـم ينتهـز هـو فرصـة غيابهـا ويأتـي بصديقاتها إلى عشـه واحدة تلـو الأخـرى، وهـذه التـي معـه، واحـدة منهـن ولا يغرنـك هيامهـا به،

فهـي أيضًـا مثلـه ولديهـا كثيـرًا مـن الأصدقـاء يأتونها خلسـة عندمـا يكون زوجهـا غائبًـا عنهـا، لـذا كان محب يطلـب الطعام من أماكـن بعيدة، لتظل زوجتـه بعيـدة عنـه أطـول وقت ممكن، فأي خسـة هـذه التـي تجعلنا نرد هـذا المعروف بهـذه الدونية؟!

و عندمـا تأتـي المسـكينة المتعبـة لا تسـتريح حتـى تطعمـه وتسـقيه كانـت تتباهى بـه أمام كل صديقاتهـا المجاورات لهـا على الأفرع المتفرقـة من الشـجرة، وتشـير إليـه وتقول بصـوت عالٍ يملـؤه الفرح هذا حبيبـي لا يوجـد أقـوى منـه، ولا أجمـل منـه.

فكـن يضحكـن جميعًـا فـي سـرهن وينظـر بعضهـن إلـى بعـض فـي صمـت ودهشـة، فكلهـن يعلمـن بذلـك بل قـد تأكـدن بأنفسـهن من حقيقـة هـذا الأمـر عـدة مـرات.

وكان محـب يبـدو أمامهـا مـلاكًا بريئًـا عاشـقًا ولهـان، ويتغـزل بهـا مـن وقـت إلـى آخـر، فخبراته المتعـددة مع غيرهـا كانت تسـاعده في أن يمتلـك بسـهولة قلـب أي عصفـورة تقـف أمامه.

أطلـق بـارون كلماتـه كالرصـاص بـلا رحمـة عليهـا، فأصـاب جراحًا قديمـة وأعـاد إلـى ذاكرتهـا مـا قـد حاولـت أن تمحـوه منهـا، فعـاد الجرح الـذي التـأم ينـزف بقوة.

و كأن شـريطًا سـينمائيًّا مر أمام عينيها للحظات بنفس السـيناريو، لكـن كل مـا هنالـك، تغيـر فـي بعـض الشـخصيات، فبـدت عندمـا التفتت إلـى بـارون وكأن دمعًـا يطـرق جفنيهـا، لكنها أصـرت أن لا تفتـح الباب له، فلـو كل طـارق عليـك، تركتـه لفتـرة دون أن تفتح له، حتمًا سـيمضي لحال سـبيله، ويعفيـك مـن تكلفـة الضيافـة، التـي سـتجلب لـك أحزانًـا وأوجاعًا قـد تكـون في غنـى عنها.

هـدأت رانسـي بتلـك الكلمـات التـي حدثـت بهـا نفسـها، وأحـس بـارون أنـه كان يجـب عليـه ألا يتفـوه بمـا قالـه، ولكـن كل مـا أراده فقط هـو أن يوقظهـا مـن غفلتهـا، فإنـه كان يـرى أن الزيـف يمـلأ هـذا العالـم، وأن عليهـا أن تتنبـه لذلـك وأن تغيـر مـن نظرتها إلى الأمـور التي تدور من حولهـا، لترى الحياة بالعين التي تسـتحق، وتشـاهده مـن الجانب والزاوية الصحيحـة، فمـا قـد لا ترصـده العين من أول مرة، قد لا تسـتطيع أن تعرف عنـه شـيئًا لاحقًـا، فالإعـادة فـي هـذه الحـالات تكون شـبه مسـتحيلة، وأن عينًـا واحـدة لا تكفـي لتبصـر بهـا حقيقـة واحدة فـي هذا الكـون المظلم.

تظاهـر كل منهمـا بالصمـت لفتـرة قليلـة، وتبـادلا نظـرات تحمـل أسـئلة لا إجابـات لهـا، ثـم توقف لسـاناهما عن الـكلام، ولكـن عقليهما لم يكفـا عـن الحديـث، كل كان غريقًـا فـي دوامتـه، يبحـث عـن تلك القشـة التـي يظـن أن فيهـا نجاته.

كل منهما كان يحاول أن يضم الآخر إلى صفه، بارون يعلم أن للحرية ثمنًا، لذا فضل البقاء لأنه لا يملك شيئًا ليدفعه مقابل الحصول عليها، ورانسي التي عاشت عمرها كله حرة، تعرف جيدًا أن حريتها الزائدة هي من ألقت بها، إلى هذا المكان الذي تكرهه، فأيًّا كانت عواقب الحرية التي عاشتها فهي ما زالت الأفضل في نظرها، من أن تحيا مقيدة بين هذه القضبان.

قالت رانسي له بصوت خافت: ماذا بعد؟

في إشارة منها مضمونها: كم وقتًا علينا أن ننتظر هاهنا؟

فطن بارون لما تعنيه وأكد لها أنه لا يستطيع مغادرة هذا المكان، فإن لصاحب المكان عليه من الفضل الكثير، فهو الذي أطعمه وسقاه واعتنى به في مرضه ولم يسئ إليه يومًا، فكيف له أن يتركه ويهرب، وهو من يفضل العيش بجواره وتحت رعايته؟ غير أن موضوع زوجته التي انتزعها منه ما زال يغضبه، ولكنه لم يجرؤ وقتها أن يمنعه.

وذكرها أيضًا كيف أتى بها سيد هذا المكان إلى هنا، وكيف كانت حالتها في ذاك اليوم, فقد كانت على وشك الموت، فوضعها في أجمل الأقفاص لديه، ورعاها وقدم لها كل شيء حتى تعافت، واسترسل بارون حديثه إليها قائلًا:

ليس من الأدب في شيء أن نترك من أحسنوا إلينا، قبل أن نرد لهم ولو جزءًا بسيطًا مما تفضلوا به علينا.

الكلمات كانت غريبة على مسامعها، فهي لم تتعامل من قبل بهذه الطريقة، فالحياة عندها ليست سوى اللحظة التي تعيشها، ولا يستدعي كل ذلك منها أن توقظ ضميرها في كل وقت، أو أن تشغل بالها بكل أمر يمر عليها، وترى أنه كما اهتم سيده بها، فهي أيضًا شدت وغنت وغردت له، وأسمعته أعذب ما تملك من ألحان، لذا فهي ترى أن لا ذنب عليها في أن تتركه، فكل منهما قد أخذ حق ما أعطى إلى الآخر.

ثم قالت لبارون بسخرية: عليك أن تحدثه، فقد ينصت لك، إذا كنت مقربًا منه حقًّا كما تزعم.

لم تمنعه سخريتها من أن يجيبها قائلًا: لو كنا نعلم لغة من بيده أمرنا لما ترددنا لحظةً سائلين إياه أن يطلق سراحنا، قبل أن تتعلق أرواحنا به، لكن اللغة ليست هي العائق بيننا فأنا أعرفه جيدًا، ولو أنك تعرفينه مثلي، لما ترددتِ يومًا في أن تظلي بجانبه، حتى لو فتح لك الباب بيديه، فستفضلين وقتها البقاء معه دون تردد.

كان لبارون أداء رائع في إلقاء كلماته فكانت تقع كالشباك عليها، فلا تستطيع الإفلات منها، فكانت هذه عادة بارون دائمًا، يحدد الهدف قبل أن يصوب عليه، وكما أن الكلمات كانت تداوي جراحًا كانت تفتح جراحًا أخرى، فيجعلها يطرأ علي ذهنها تساؤلات لا حصر لها، فالاصطدام بعقل آخر أو فكر آخر ليس بالأمر السهل.

ومن الصعب على كل طائر أن يتقبله في الآن واللحظة، وإن كان معتقدًا لدى البعض أن الذي في استطاعته أن يسيطر على الآخر هو ذاك الذي يملك لسانًا طلقًا أو صوتًا عاليًا، ولو كانت الأفكار غير منطقية أو غير معقولة أو مقبولة. فهؤلاء الذين يدرسون الآخر بعناية فائقة ويرتبون أوراقهم جيدًا، هؤلاء فقط هم الذين يستطيعون أن يحققوا الفوز على خصمهم، في كل جولة يخوضونها تجاه كل من عارضهم الفكر.

ولكن الأمر أحيانًا يكون غير ذلك فالأفكار الجيدة والسيئة يمران على العقل، والعقل عليه أن يحدد ما سوف يقبل، قبل أن ينصاغ القلب لإحداهما عن جهل.

لكن ستظل هناك طيور طيبة نقية مهما أخطؤوا، فهؤلاء هم الذين إذا تكلموا تفتح لهم حجرات القلب الأربعة ممن يسمعونهم، فبمجرد أن تطرق معانيهم على مسامعك، فلا تجد منك إلا أن تستقبلها على الرحب والسعة دون أدنى سؤالٍ منك، فأصحاب القلوب البيضاء لا تستطيع أن تدنسهم الخطايا.

لمح بارون بطرف عينيه العم "هدهد" وهو قادم من بعيد، عندما نظر بالصدفة من بين القضبان في اتجاه الأشجار والسماء، وكانت رانسي بجواره تستمع في صمت لكلماته وأفكاره وهي تحاول أن تزن الأمور بكفتي العقل والقلب معًا، لكن بارون عندما وقعت عينيه على العم هدهد ارتبك كثيرًا، وأمر رانسي بالاختباء سريعًا في حجرته قبل أن يصل إليهما، ويراهما معًا. كاد الخوف أن ينطق في عين بارون، ولم يكن هناك متسعٌ من الوقت حتى تسأله رانسي: لماذا تفعل كل هذا؟!

لذا طارت سريعًا في أعلى القفص ثم دخلت حجرته لتختبئ فيها كما أمرها بارون، ثم حاول بارون أن يعود إلى طبيعته قبل أن يقترب العم هدهد منه، ثم وقف بارون يستقبله وهو يحاول أن يفرض ابتسامة كاذبة على وجهه العبوس، حتى لا يلاحظ أن هناك شيئًا يخفيه عنه، عندما يأتي لمقابلته.

الساعة الثالثة

قبل أن يكشف النهار عن ذاته ويفصح للجميع عن وجهه الذي يعشقونه، وقبل أن يصدح كعادته ويفتخر بضوئه الذي لا مثيل له، ويحتفل بالانتصار الذي حققه بالضربة القاضية، على غريمه الليل، ليعلن للجزيرة بأكملها سلاحه الذي لا يقهر، والذي لا تستطيع أي سحابة مهما كانت كثافتها أن تقف صامدة أمامه طويلًا، فسلاحه الذي لا يقهر هو الشمس، ولكن كان هناك ضبابٌ خفيفٌ قد أحاط بها من كل جانب، محاولة فاشلة ولعبة قذرة من ألاعيب الليل الخبيثة، هكذا خيل للنهار.

وأكمل حديثه قائلًا:

لقد ترك الليل هذا الضباب فخًّا لي، ليعرقل خطاي في رحلة الإشراق، ليقول لي: أرني كيف ستنجو منه؟ فهذا هو أكثر ما يملكه، ولكن على الشمس أن تقاوم ولا تستسلم حتى الجولة الأخيرة، وتطرح هذا الضباب أرضًا، لتعلن ميلاد انتصار جديد يسجله التاريخ لها بأحرف من نور.

إن كل عداء بين اثنين لا يدفع سوى بالتطور والتقدم بل يدفع أيضًا كلًا من طرفي الصراع إلى الحيطة والحذر، ليظل كل منهما حذرًا ويقظًا، خشية أن يمكر عدوه به، فإن لم يكن هناك عدوٌ لكل منهما يحذره، لطغى أيٌّ منهما على الآخر في غفلته، واستغل لحظة ضعفه.

وبالتالي هذا لن يصب في مصلحة الجزيرة، بل وقد يصيبها بالضرر، فإذا تكاسل النهار عن نهوضه من الضربة التي وجهت إليه من غريمه الليل وتغافلت عيناه قليلًا، استفحش الظلام والشر ومن ثم لجاعت الطيور وبدأت الحياة تنتهي تدريجيًّا، فمن اعتاد أن يبصر في النور لن يستطيع أن يتعايش مع الظلام، وحينئذٍ ستستولى الطيور الليلية كالخفافيش والبوم والوطاويط وبعض من فصائل النورس، على خيرات الجزيرة. وكذلك سيحدث الشيء نفسه، إذا ما تربع النهار طيلة الوقت، فقد يموت كل طائر في جحره من أولئك الذين لا يستطيعون أن يبصروا في الضوء، فكل عداء كان ناجمًا بينهما له فوائده ومزاياه التي إن تعد فلا تحصى، "فقد يكون أحيانًا عداء قوم عند قوم فوائد".

وقف بارون مضطربًا يتابع العم هدهد بنظره حتى اقترب العم هدهد ودنا منه، هذا الطائر الذي له عرف يميزه عن غيره من الطيور، وصاحب اللون البني الفاتح الذي يأخذ الأنظار.

هبط العم هدهد في هذه المرة، أمام باب قفصه مباشرة، عندما وجده مفتوحًا، فتقدم بالدخول بعد أن ألقى التحية على بارون، تذكر بارون أنه نسي أن يغلق الباب، عندما كان في عجلة من أمره عندما علم بقدومه نحوه.

و كان أول تعليقٍ من الهدهد له: إني أرى بابك اليوم مفتوحًا.

قالها متعجبًا ولكنه خشي أن ينصحه بالهرب، فيضيع عليه عميل عنده، فقد يكون في نصيحته ضرر له، فقد كان يقوم العم هدهد – أطلق عليه هذا الاسم لكبر سنه – بتوصيل الرسائل بينه وبين زوجته من آن لآخر، وكان يحصل مقابل هذا على حبات كان يوفرها بارون من طعامه ويعطيها إليه أجرَ عمله، ويرسل معه أيضًا ببعض الحبوب إلى زوجته.

كان يقوم العم هدد بهذا العمل الإضافي ليسد حاجة أسرته، فإن صغاره كانوا لا يعتمدون على أنفسهم إلا بعد ثلاثين يومًا من الرعاية الكاملة، فهذا ما كان يدفعه دائمًا أن يستيقظ مبكرًا كل يوم، ليقوم بهذا العمل الإضافي.

سأله بارون قبل أن يلتقط العم هدهد أنفاسه وقال: ماذا تحمل لي من رسائل؟ أشار إليه الهدهد أن يتمهل قليلًا وطلب منه أن يضيّفه، فهذه هي المرة الأولى التى تطأ فيها قدماه القصيرتان قفصه.

ناوله بارون على وجه السرعة قليلًا من الماء وحبات كانت عنده، دون أن يدخل معه في نقاش أو معارضة، لعلمه بأن كبار السن يتأذون سريعًا ممن يحاول مجادلتهم، فكان الأسلم له أن يطيعه حتى لا يطيل من وقت مكوثه فيكتشف أمر رانسي المختبئة في حجرته.

مد الهدهد منقاره المعكوف ليتناول به الطعام الذي قدمه إليه، ثم توقف فجأة عندما وقع بصره الحاد على التاج الملقى بداخل القفص الذي صنعه بارون لرانسي فاستغرب الهدهد لذلك، وقال: لمن هذا التاج الرائع أظنك صنعته لزوجتك؟ إذا أردتني أن آخذه معي وأنا في طريقي للعودة لا مانع لدي، ولكن هذا سيكلفك عشرة حبات أخرى.

ارتبك بارون في الرد عليه، وأقنعه أن هذا التاج أمانة عنده، وهو لم يكتمل بعد، ثم أمره بغلظة أن يضعه جانبًا وأن لا يعبث بشيء لا يخصه.

كانت رانسي تسمع الحوار الدائر بينهم، وتلتزم الصمت كما أمرها بارون، لكنها انزعجت من رؤية الهدهد التاج، وبدأت تحضر في ذهنها إجابات عدة لتدافع بها عن نفسها عندما يلقى بارون باللوم عليها، إذ إنها لم تحافظ عليه كما أمرها من قبل، ومع هذا الخوف لم يستطع الإزعاج أن يسيطر عليها ويأخذها من سعادتها بأنها الآن في حجرة بارون، وها هي تتنفس من رائحته التي تملأ الحجرة عطرًا.

صدع بارون بسؤاله إلى العم هدهد، وقال في تهكم شديد:

– أبلغني رسالتك التي جئت بها فقد يأتي سيد المكان في أيٍّ لحظة ويجدك هنا، وهذا سيكلفنا كثيرًا من المتاعب، فأسرع إذا تفضلت.

اختـرع بـارون هـذا الكلمات لدفعـه إلى الحديث ليقول سـريعًا ما جـاء مـن أجلـه بـدلًا مـن التباطـؤ الـذي يقـوم بـه، أومـأ إليه العـم هدهد برأسـه بعـد أن تحـول عرفـه لشـكل مروحي وقـال له:

إن زوجتـك تشـتاق إليـك وتبلغـك، أن مـا ترسـله إليهـم أصبـح لا يكفيهـم، فـأولادك أصبحـوا يأكلـون أكثـر، بعـد أن كبـروا قليـلًا، لـذا فهـي تسـألك أن تزيـد مـن شـدوك وتغريدك، فعسـى بذلـك أن يضاعف سـيدك لـك الطعـام فتسـتطيع أن توفر لهم حاجتهم وأسـتطيع أيضًـا أن أحمل لهم منهـا ما شـئت.

رد عليـه بـارون بأنـه سـوف يبـذل كل جهـده وأعطـاه الحبـوب المتفـق عليهـا كأجـر لـه وكميـة أخـرى يرسـلها إلـى زوجتـه وصغـاره، ثـم أمـره أن يبلغهـم سـلامه، ثم أشـار إليه بجناحـه تجاه البـاب، ففهم الهدهد أنـه يقـول لـه ارحـل، بطريقـة مهذبة.

لكـن العـم هدهـد بدلًا مـن أن يذهب تجـاه البـاب، إذا هو يتقدم داخـل القفـص خطوتيـن وينظـر يمينًـا ويسـارًا، كأنـه يبحث عن شـيء ما، ثـم رفـع نظـره تجـاه حجرتـه المعلقـة فـي أعلـى القفـص، وقـال لبـارون: كأنـي أسـمع صـوت أنفـاس طائـر وأظنـه قادمًا مـن حجرتك.

أعتـرض بـارون طريقـه ووقـف أمامـه وصـده بجناحيـه، وقـال متلجلجًـا ليـس مـن أحـد هنـا، ولا تمُدَّنَّ بصـرك إلى ما تملك ومـا لا تملك.

ارتعشـت رانسـي بداخـل حجرتـه وتصببـت عرقًـا، خشـيةَ أن يفضـح أمرهمـا.

توقـف العـم هدهـد بعـد أن صـده بـارون الـذي بـدا علـى وجهـه التوتـر فسـأله هدهـد عـن مصـدر هـذا التوتـر فقال:

إن رسـالتك حملتنـي عبئًـا آخـر علـيَّ أن أقـوم بـه، وهـذا مـا سـيجعلني أبـذل جهـدًا أكبـر، وإن كان هذا سـيزيد إرهاقي، ولكني سـوف أفعـل مـا بوسـعي.

قـام العـم هدهـد بهـز رأسـه وأظهـر لـه أنـه راضٍ علـى كذبـه، وصـدّق مـا تفـوه بـه.

ثـم قـال لـه: نسـيت أن أبلغـك بشـيء آخـر أخبرتنـي بـه زوجتـك عسـى أن يكـون لـه فائـدة عندك فـي حالتك هـذه التي يرثى لها. ثم أشـار أن تقدمـه فـي العمـر هو الـذي يجعله ينسـى أحيانًا وأنه يخشـى أن يأتى عليـه يـوم ويتقاعـد مـن هذا العمـل الذي من شـروطه حفظ الرسـائل عن ظهـر القلب.

أنصت له بارون وسأله أن يتكلم فقال له: إن زوجتك تحبك.

بـدى علـى بـارون فرحـة يخالطهـا الحـزن ثـم سـأله بلهفـة: أحقًّـا قالـت ذلـك؟

أجابه العم هدهد وقال: إنه قد قرأ هذه الكلمات في عينيها فبصره الحاد كفيل أن يظهر له تلك الحقائق، وأكمل قائلًا: إنها ما زالت على عهدك وترعى أولادك، ولم تنظر يومًا إلى طائر غريب رغم بعدك عنها.

قال بارون بصوت خافض محدثًا نفسه: كم هي رائعة حقًّا، وما زالت باقية على العهد!

فرد عليه العم هدهد: وكأنه كان حاضرًا بالإجابة من قبل أن يسمع السؤال وقال له: حاول أنت الآخر أن تصون هذا العهد الذي بينكما.

ثم استرسل قائلًا علي أن أذهب الآن فهناك رسائل أخرى عليَّ أن أوصلها إلى أصحابها قبل أن يهاجمني النسيان مرة أخرى فأقع أسيرًا في قبضته.

ثم همَّ العم هدهد بعد ذلك متجهًا نحو الباب، وخلفه بارون يستعجل خطاه ليرحل عنه، وإذا هو يتوقف ويلتفت إليه ثم يسأله قائلًا: أتريدني أن أبلغها أنك الآن طليق حر، فقد يسعدها هذا الخبر؟

أحس بارون أن هذا الهدهد يخفي شيئًا ما خلف المعنى الواضح له فقال له: عن أي حرية تتحدث لقد رأيتني بنفسك في قفصي ومرابطًا فيه، إن المسؤولية التي أحملها على ظهرى هي التي تجبرني على البقاء هنا.

هاهنا ابتسم العم هدهد، وقال له: على كلٍّ إذا فكرت في الأمر فزوجتك وصغارك في حاجة إليك، وأستطيع أن أدلك على مكانهم.

كانت هذه آخر الكلمات التي أوصاه بها، ثم ودعه ورفرف بجناحيه في الفضاء الواسع، وظل بارون يراقبه من خلف القضبان وهو شارد الذهن حتى غاب عن نظره.

إن رسائل العم هدهد المخبأة في طيات حروفه، جعلته يشعر بالذنب تجاه زوجته وفتحت عليه جراحًا، ظن أنها التأمت من كثرة ما تجاهلها، ولكن مهما التأم الجرح تظل آثاره باقية، لتذكره به من آن لآخر.

قد تناسى بارون للحظة الوضع الذي هو عليه، وتعامل وكأنه حر طليق، عندما انجذب بمشاعره تجاه رانسي منذ اليوم الأول الذي رآها فيه، وأغلق أذنيه وتجاهل صوت العقل لكي لا يزعجه حديثه الدائم إليه، وفتح أبواب قلبه إليها وهمس إليها ادخلي من أي باب شئت، وها هو صوت العقل يصرخ مرة أخرى في أذنيه ويأنّبه بأن أحب رانسي، ويزجره بأن يخرجها من قلبه ويوصد الباب خلفها فلا يفتح لها ولا لغيرها مرة ثانية.

في نفس اللحظة التي لا يكف فيها بارون عن التفكير هبطت رانسي من حجرته بعد أن اطمأنت أن الهدهد قد رحل عنهما ثم تقدمت نحو بارون الذي ما زال يضع رأسه التي يستند بها إلى القضبان شريد الفكر، ينظر إلى الفضاء إلى أسراب من بعض الطيور المهاجرة،

التي قدمت إلى جزيرتهما، ولفت انتباه بارون أنهم ليسوا من نوع واحد كما هو الثابت في الطيور المهاجرة، فقد كانوا خليطًا من أنواع شتى.

قاطعت رانسي أفكاره المشتبكة وقالت له بصوت خافض: ماذا بك؟

التفت إليها بارون ونظر إليها بعينيه الحزينتين وقال في أسى شديد: لا شيء، ثم بعد هنيهة تذكر أمر التاج وذكر رانسي أنه قد قال لها من قبل أن تحافظ عليه وألا تتركه حتى يأذن لها، فيضعه هو بنفسه على رأسها، ولكنه لم يشدد في العتاب عليها ولم يظهر على ملامحه أي علامة من علامات الغضب.

قدمت رانسي اعتذارها، فتقبله بارون دون أي ردة فعل منه بأنه قد قبل اعتذارها غير أنه فقط أومأ إليها برأسه، ثم التفت إليها ووقف أمامها وجها لوجه وقال:

إني متأكد من أنه علم بوجودك معي، فهو ذو بصر حاد وبصيرة، وما أخشاه هو أن يتفوه بشيء لزوجتي، فهي مسكينة وقد لا تستطيع أن تتحمل هذا الخبر.

تعجبت رانسي من حديثه عن زوجته وكم هو وفيّ لها حتى في غيابها عنه، وفرحت بأنه ما زال بعض من الطيور يحملون قلوبًا

طاهـرة، وتمنـت أن لـو كانـت هـي تلـك الزوجـة، حتـى لـو كانـت بعيـدة عنـه، فالأنثـى تكتفـي دائمًـا بالذكـر الصـادق الوفـي، وأن من تمتلـك ذكرًا بهـذه الصفـات، سـتعيش العمـر فـي سـعادة وأمل.

انتهـزت فرصـة التقـاء عيونهما، فهمسـت في أذنيه وقالـت له: إني أحبـك وأتمنى أن تكـون لي ومعي.

ثـم طلبـت منـه أن يصعـدا معًا إلى حجرتـه ووعدته بأنها ستنسـيه كل هـمٍّ يحوم فوق رأسـه.

نظـر بـارون إلـى عينيهـا الدافئتيـن وابتلـع ريقـه وكاد أن يوافقهـا علـى مـا تريـد منـه، فلـكل طائـر غفوة.

لكنـه سـرعان مـا اسـتيقظ، فعندمـا يكـون الطائـر حائرًا ومشـغول البـال والألـم يشـب فـي جسـده كالحريـق، فإنـه يعلـم أنه لـن يطفئ هذا الحريـق سـوى مـا طلبتـه منه.

لـم يسـتطع بـارون أن ينظر إلـى عينيها طويلًا فلعينيهـا جاذبيتهما الخاصـة وسـحرهما المطلـق، وسـلاحهما الفتـاك الـذي إذا مـا وُجِّـه إليـه سـيجعله يرفـع رايتـه ويستسـلم لها فـي الحيـن واللحظة.

أصبح رمش عينيها يقصف بقذائفه عليه دون رحمة أو شفقة، وهو لم يجد سوى الصمت ملجأ منها ليلوذ بروحه، فغير الموضوع وتنحى عنها جانبًا ثم ولاها ظهره، ليفض هذا الاشتباك، الذي حتمًا سيكون هو الخاسر فيه، أخذ هدنة ليلتقط أنفاسه، ليلملم ما تبقى من روحه وما تبعثر من أفكاره.

هرب من الفخ الذي نصبته له بمهارة عصفور ذكي، لم يعط فرصة واحدة لصياد أن يمسك به، فإن مهارة الصياد تكمن في إغراء فريسته، وكلما كان الطمع دافع الفريسة، فيكون الصياد أوفر حظًّا بالإمساك بفريسته، ويسهل عليه بأن يحصل على غرضه منها وبذلك تكون مهمته قد تمت بنجاح.

قاطعت رانسي حديثه لنفسه، وكأنها قرأت ما يدور في رأسه، فقالت له بصوت يسكنه الألم وعيونٍ يغشاها الدمع:

- إن الموت لأقل فظاعة مما تحيا عليه، كيف أهب لك نفسي فترفضني؟ أتخاف عقابًا من أحد إن ضممْتني إليك، أهناك من تخشى منه أن يرانا؟ لقد قلتَ لي سابقًا إنك ستهب لي السعادة، وها أنا بين يديك وأرى أن قربي لم يزدني إلا ألمًا .

حاول بارون أن يُهدئ من روعها، فربت على كتفيها والتزم الصمت، ولم يجبها عن سؤالٍ واحدٍ.

ناولها بعض من الماء فشربت وابتعد عنها قليلًا وظل يتبادلان نظرات قاسية يملؤها الحزن والأسى، كأنهما يشكوان لبعضهما ما ألم بهما من جراء هذا العشق.

بعد هنيهة قال لها بارون:

– أنا لا أريد علاقة يكون للجسد دورٌ فيها، فقط أريد أن تستحوذ قلوبنا على كل شيء، فنتعلق بالروح الباقية ونترك الجسد الفاني.

استغربت رانسي مما قاله لها وأشارت إلى قلبها وقالت له:

– قلبي جزء من جسدي الذي لا تريده ولولا جسدي لما استطعت أن تراني، لما تريد الأشياء ناقصة وأنت في استطاعتك أن تحصل عليها كاملة؟!

ثم سألته وقالت:

– هل رؤية الماء تفي بالغرض للظمآن؟ وهل رؤية الطعام قادرة على أن تشبع جائعًا دون أن يمد منقاره إليه؟

كانت رانسي متأكدة أنه قريبًا جدًّا ستأتي اللحظة التى سيمد فيها جناحه ويقطف ما دنا منها من ثمر، ويشرب من خمرها حتى يرتوي، فكلما مر الوقت ازداد الجائع جوعًا، وعندها إن قُدِّم إليه من الطعام ما هو أدنى من ذلك فسيلتهمه مرة واحدة، ثم قالت في نفسها: من هذا الذي في استطاعته أن يواصل الصوم طول الدهر، دون أن يلقى مصرعه؟ وما دام يحب الحياة فحتمًا سيحبني، فلا حياة لعصفور دون وليف يؤنثه.

اعتـراه الصمـت وتبسـمت هـي لـه وبـدأت تبحـث بداخلهـا عـن أسـاليب أخـرى، تسـاعدها على هزيمتـه، فطرقـه الملتوية كثيـرة وتجعلها فـي متاهـة أحيانًـا، فكلمـا سـلكت طريقًـا معـه وجـدت فـي آخـره حائط سـدًّا، لـذا كان عليهـا دائمًـا أن تعـود إلـى نفـس النقطـة التى بـدأت منها، لتبحـث عـن الطريـق الصحيح.

فمهمـا طـال الوقـت وازدادت الطـرق تعقيـدًا، يظـل هنـاك طريقًـا واحـدًا يسـتطيع فيـه الطائـر أن يجـد مبتغـاه، وكل مـا يحتـاج إليـه ليقـوم بذلـك، هـو البحـث عنه.

أصبحـت رانسـي تحـدث نفسـها أكثـر مـن أي وقت مضـى، ولكنها أيضًـا بـدأت تسـترد ثقتهـا في نفسـها وتعـزز من نفسـها أمام عينيـه، وعاد الحديـث بينهمـا إلـى عذوبته وفاض نبعهـا على نهره فالتقيـا وامتزجا معًا، وبـدأ فـي تبـادل البسـمات التـي غابـت عنهمـا مـذ أن شـق هـذا الصبـاح طريقه فـي الوصـول إليهما.

وبينمـا همـا منهمـكان فـي الحديـث معًـا، إذا طائـر يهبـط فجـأة فـوق سـور الشـرفة، وبـدأ ينظـر إلى رانسـي ويغـرد لهـا لحنًا شـجيًّا، وكأنه قـام خِصّيصًـا بتلحينـه لهـا، كان هـذا الطائـر هـو عصفـور الزِّبـرا الرمـادي اللـون صاحـب وجنتيـن باللـون البرتقالـي وجناحـاه بُنيّـا اللـون ومنقـاره برتقالـي يميـل إلـى الصفـرة.

شـعر بارون أنه يرسـل إلى رانسـي شـفرات من خلال ما يتغنى به وهـو ينظـر إليهـا في شـغف ورهبـة، لكنه لم يسـتطع أن يفهم مـا تحتوي عليـه رسـالته إليهـا، ازداد بـارون غيظًا عندما رأى رانسـي تستحسـن صوته وهـي تنظـر إليـه وكأن هنـاك حنينًا مـن نوع خـاص يجذبها إليه.

دبّت الغيرة بداخل بارون وتغير لونه وبدأ ينفش ريش صدره وتعتلي أصوات أنفاسه، واتضحت عليه علامات الغيرة التي لا يستطيع أي ذكر إخفاءها، ثم نهاها عن متابعة النظر إليه بهذا الشغف فهذا قد يجعله يطيل المكوث، كلما وجد استحسانًا لطيفًا منها إذا بادلته النظر، لم تلق رانسي لكلماته أي اهتمام، فبدأ بارون يلقي عليها بالتهم وقال لها:

لعلك تعرفينه من قبل.

كانـت الكلمـات جارحـة بعـض الشـيء، ومـع ذلـك تبسـمت لـه، لعـل غيرتـه عليهـا، جعلتهـا تغفـر لـه حماقاتـه وقالـت لـه:

اخرج إن شئت وأبعده بنفسك عن هنا.

اسـتنبط بـارون أنهـا تقـول ذلـك لتجعلـه يخـرج مـن قفصـه، فلـم يتكلـم فاسـتكملت رانسـي وهـي تبتسـم وقالـت: مـا الـذي يجعلـك تغـار علـى شـيء أنـت زاهـد فيـه؟! لـمَ تسـعى جاهـدًا أن تحـرم غيـرك الخيـرَ الـذي لا تريـده؟!

أجابها بارون بأنه لن يتحدث حتى تصرف نظرها عنه.

كانت رانسي تعيد النظر إلى عصفور الزِّبرا من حين إلى آخر، لتصب الماء فوق الزيت المغلي لتزيد أجيج نار الغيرة فيه حتى تلتهمه النار عن آخره.

أحس بارون أن سلاحها هذه المرة أقوى وأشر فتكًا به.

اقتربت رانسي من بارون حتى التصقت به ووضعت خدها على خده ثم سندت برأسها على كتفه وأغمضت عينيها، وهمست في أذنيه وقالت: أعشقك وأنت تغير علي.

تراجع بارون خطوة إلى الخلف، وأبعدها عنه ببطء، وقال لها: لقد تحدثنا في هذا الموضوع من قبل، لذا أرجوكِ أن تتفهميني.

ضحكت رانسي حتى علا صوتها من شدة خجله، ثم أشارت إليه أن ينظر تجاه الشرفة وقالت له: أُنظر، لقد طار المسكين.

تأكد بارون عندما مدّ ببصره تجاه الشرفة، أن اقترابها منه فعلًا في هذه المرة لم يكن إلا لكي تُظهر لعصفور الزِّبرا أن لها حبيبًا تعشقه وأنها سعيدة معه، فلذلك طار المسكين على وجه السرعة.

تبسم بارون عندما علم بحقيقة الأمر ونظر باستعجاب إليها وقال لها: آه منكن - معشر العصفورات - تصنعْن الحيل وتنصبْن الشباك بحرفة صانع، وقل من ينجوا منكن، بل أكاد أقول إنه لا ينجو منكن أحدًا.

كانت رانسي على يقين من أنه حتمًا سوف يخسر أمامها، عاجلًا أو أجلًا، لذا كانت تريد أن توفر عليه الوقت الضائع، وأكدت له أن استسلامه هو الحل الأمثل بدلًا من كل هذا العند الذي لا فائدة منه .

فكلما زادت عدد الجولات بين خصمين، لن تصب أبدًا في مصلحة الأضعف فيهما، لأنها ستزيد الضرر الذي يقع عليه، إذا كانت خسارته حتمية.

الساعة الرابعة

ما زال الصبح يلتقط أنفاسه، وبدأت ابتسامته تتحول فوق سطح الجزيرة كإشراقة حب، ويحتفل بنخب انتصاره ولذة انتقامه، وفورَ أن تحررت الشمس من القيد الذي أحكمه الضباب عليها بقوة.. بدأت بتسليط ضوئها، على هذا الضباب الكثيف من حولها، فبدأ يتساقط رذاذه واحدًا تلو الآخر، وعندما خارت قوى الضباب وأصبح لا حول له ولا قوة، لم يكن لديه اختيار آخر سوى الاستسلام، جثا الضباب على ركبتيه يطلب من النهار أن يصفح عنه، وبدأ يبرر خطأه ويتفوه بأعذار لم يستطع النهار أن يتقبلها، وقال الضباب وهو يرتعد منه، إن الخطة لم تكن خطته، فهو لا يحمل أي ضغينة للنهار، فكل ما قام بفعله ما هو إلا القيام بواجبه في الوظيفة التي نسبت إليه، دون أدنى وعي منه عن مدى خطورتها، التي كانت ستحجب النور أن يصل إلى أهل الجزيرة، سقط الضباب أسيرًا في أيدي النهار، فبكى، لكن دموعه لم تحرك في النهار ساكنًا.

تعجب النهار من ضعفه أمامه وسأله: إذا كان قائدك الليل قد فر هاربًا، ولم يقدر على أن يصمد كثيرًا في مواجهتي، فلمَ لا تزال صغار الجنود تقاوم في ساحة المعركة؟

فما كان رد الضباب إلا أن رفع يده يستسمحه ويترجاه في الصفح عنه.

لكن رد النهار جاء سريعًا وعنيفًا وقطع يده.

لـم تشـفع لـه الدمـوع الزائفة، ولم يسـتطع أن يغش النهـار بكذبه المنمـق، فـكل شـريك فـي المعركـة أيًّـا كانـت رتبتـه فهـو شـريك فـي الـدم، قائـدًا كان أو مأمـورًا، ولا رحمـة ولا تهـاون مـع الجبنـاء، ومـا جـزاء المتطاوليـن علـى أسـيادهم، إلا شـر الجـزاء؟!

كثيـر ممـن ليـس لهم الذنب يلقـون حتفهم تحت عجـلات الحرب، دون أي خطـأ يذكـر منهـم، وقـد يكـون خطأهـم الوحيد هو أنهـم ينتمون إلى هـذا المكان.

فالحـرب تخـص الكبـار وهي بين الليـل والنهار فقـط، ومن يتدخل بيـن طرفـي النــزاع، ولو للتهدئـة حتمًا سـيكون له نصيب مـن الأذى الذي سـيلحق بالخاسر منهما.

أمـا هـذا الذى يقـف على الحيـاد دائمًا، هو ذلك الذي لا يسـتطيع أحـد أن يحـدد لونـه، أو أن يميـزه أهـو غسـق ينتمـي إلى الليـل أم غروب ينتمـي إلـى النهار، لفرط الشـبه بينهمـا، ومن يرضى على نفسـه بأن يكون كذلـك فلـن يسـتطيع أن يندمـج مـع أي طـرف منهمـا لاختلافـه الواضـح عنهمـا، ومهمـا طـال بقـاؤه بجـوار أحـد منهم سـيظل منبـوذًا فـي أعينهم، وهنيئًـا لمن حـددوا لونهـم ومصيرهـم وانتماءاتهم.

بدأ النهار يتجلى رويدًا رويدًا في عيني بارون ورانسي.

وبدأ الدفء يملأ المكان وتوقفت الأدخنة الصاعدة من فمهما في أثناء حديثهما، وبدا على كل منهما تأقلمه مع الآخر، وبدا القفص المقيت في أعينهم كقطعة من الجنة، فببقائهم معًا تبدلت نظرتهم إلى الأشياء، وكأن ليس هناك قضبان تمنعهم الحياة، فقد تحيا سعيدًا وأنت مسجون مع من تحب، وقد يكون ذلك أفضل من أن تعيش حرًّا مع من يعاديك.

واصل كل منهما همساته ونظراته عن طيب نفس وراحة بال، كان يكفي بارون أن يمتع عينيه بالنظر إليها، أما رانسي فما زالت تريد منه هذا الشيء الذي صدها بسببه حين طلبته منه، وتمنت أن تأخذه وتبتعد به عن هذا المكان، فقد لا يكفيها خيال الجنة لمجرد يوم.

شرعت رانسي تتحدث معه عن حياتها السابقة، وبدأت تذكر له كم كان لها علاقات مع الكثيرين من الذكور من أنواع شتى، لم يكن هناك شيءٌ مميزٌ في أن تذكر له قصصها معهم.

فكل منهما كان يكتفي بما يناله من الآخر، دون الحاجة إلى إلحاح أو استئذان، حتى وقعت في غرام عصفور من نفس فصيلتها، فأحبته حبًّا جمًّا، وقدمت له أكثر مما يتمنى، وأعطته ما لم يكن يحلم به، حتى جاء هذا اليوم الذي رأته وهو يخونها في نفس العش الذي بنياه معًا.

لـم تتحمـل رؤيـة هذا المشـهد أمـام عينيها، فانهـارت وقتهـا بكاءً، حتـى استنــزفت قوتهـا، ثـم طـارت مهاجـرة لأي مـكان يأخذهـا جناحاهـا إليـه، دون معرفـة إلـى أي مـكان تتجـه، وبعـد فترة مـن الطيـران أُنهكت،

ثـم سـقطت مـع غـروب الشـمس، وغابـت عـن وعيهـا، وعندمـا فتحـت عينيهـا بعـد هـذا الإغماء، وجدت نفسـها فـي صبيحة اليـوم التالي حبيسـة القفـص المقابـل لبـارون.

قاطعهـا بـارون الحديـث وقـال لهـا: لـم أنـسَ هـذه الليلـة، عندمـا جـاء بـك سـيدي إلـى هنـا وهـو يحملك برفـق على يديـه، بعـد أن أنقذك، مـن يـد الطيـور الجـوارح التـي كانـت تحيـط بـك مـن كل جانـب، عندمـا سـقطتِ فريسـة فـي أيديهم، ظللـت أراقبك طوال الليل مـن بين القضبان، أمـا أنـتِ فكنـتِ نائمـة مثـل الملائكة وحين بـزغ النهار دار هـذا الحديث بيننـا الـذي ما زلـت أتذكره.

بارون: صباح الخير أيتها الأميرة الحسناء.

رانسـي: أتسـخر منـي؟ لقبتنـي بالأميـرة، وأنـت تعلم أن ما أسـكنه الآن ليـس بقصر.

– لا تدَعي هذه الأمور تزعجك، فهذا لن يقلل من قدرك في عيني.

= ما اسمك؟

- بارون المتيم بك، وأنت؟

= رانسي عصفورة سابقًا وأميرة حاليًا، كما ذكرت أنت، أليس كذلك؟ وما هذا الشيء الذي تصنعه؟

- إنه تاج من قش، تعلمين أن على الأميرات الجدد أن يحصلن على تاج مثله، ليتميزن عن غيرهن.

= وهل للأميرة الحق في أن تطمع أن ترتديه؟

- وهل صنع إلا من أجلها.

بعد أن ذكرها بارون بهذه اللحظات الأولى من لقائهما الأول، ارتسمت على وجهها ابتسامة جميلة مثل تلك اللحظات التي عاشتها معه، وأثنت على هاتين اليدين التي أنقذتها وقالت إنها حقًّا تستحق الشكر، وإن كانت تفضل الموت عن أن تحيا أسيرة بين هذه القضبان، وذكرت نفسها بأنه إن لم يتم إنقاذها لما أُتيح لها أن تتعرف إلى بارون، الذي أحيا بداخلها أشياء قد ماتت بالفعل.

فكان بارون في عينيها بمثابة حلم جميل لطالما سعت إليه، وكل ما يزعجها منه هو فقط تشبثه برأيه وتمسكه بمكانه.

كانت رانسي تعلم أن الحب قادر بأن يلين الحجر الصلب، وأنها كلما جعلت بارون متعلقًا بها، ضمنت أن يكون طوع أمرها ورهن إشارتها، وعندها لن يكون في استطاعته أن يعاندها في بداية كل أمر.

التـزم بـارون بصمت غريب وشـرد بذهنه بعيدًا عنها، وكأن رانسـي لـم تكـن تتحـدث معـه انفصـل بعقلـه عـن هـذا العالـم وبـدأ يسـبح فـي عالـم آخـر مـن نسـج خيالـه، قاطعـت رانسـي تفكيـره قائلـة له: مـا الذي يـدور في رأسـك؟

انتبـه بـارون إلى سـؤالها بعـد أن أعادته عليه مرتين، ثـم نظر إليها بعينيه الحزينتين، وقال لها سـأطلعك على أسـراري.

تحمسـت رانسـي لسـماعه، وأنصتـت لـه، فهـو لـم يخبرها بشـيء عـن ماضيـه مـن قبـل، على عكسـها، فهـي كانت ككتـاب مفتوح لـه، وكان كلمـا أراد أن يعـرف شـيئًا يضعـه بيـن يديه ويقلـب صفحاته حيث يشـاء، أمـا هـو فلـم يعطهـا الفرصـة أن تقـرأ حرفًا واحـدًا مـن كلماتـه التائهة في آلاف من السـطور.

انتظـرت رانسـي أن تسـمع أسـراره لتعرفـه جيـدًا، ظنًّا منهـا أنها لو عرفـت العلـل، اسـتطاعت بعدها أن تجـد عندها ما يناسـبه.

لكنه قال: ولكني لن أتحدث إليك فأنا لا أريد أن أكذب.

نظـرت إليـه نظـرة لـوم علـى أنه تلاعـب بها ثم استرسـل قائـلًا: بل سـأجعلك ترين بنفسـك ما لم أسـتطع أن أذكره، شـرط أن تغمضي عينيكِ.

ظنـت فـي بادئ الأمـر أنه سـيقبلها فأغمضتهما سـريعًا، ثم أغضبها بعـد ذلك أنه لـم يفعل.

أخـذ بـارون بجناحهـا الأيمـن ووضعـه علـى رأسـه وقـال لهـا سـأطلعك الآن علـى كل أسـراري، سأسـمح لـك أن تشـاهدي بداخلـي كل شـيء، بعينيـكِ المغلقتيـن.

لقـد سـمعت رانسـي فيمـا قبل مـن أحد الطيـور المهاجرة، بشـيء من هـذا القبيل.

و كانـت مقتنعـة أنهـا مجـرد خرافـات وليـس لهـا أي أسـاس مـن الصحـة، لكـن الفضـول هـو مـا دفعهـا أن تطيـع بـارون لتكتشـف حقيقـة الأمـر بنفسـها.

أغمضـت رانسـي عينيهـا واسـترخت وسـلمت روحها إليـه، فعبرت عبـر خيالهـا إلـى داخله.

بدأ الظلام يسيطر على المشهد ومن ثم تجلى قليلًا، وبدأ الضوء يسلط أشعته على هذا الظلام حتى محاه، وبدا أمامها المنظر كأنه شاشة عرض كبيرة، تقوم بعرض عدة لقطات من حياة بارون، فرأته وهو عصفور صغير يشق بيضته في كفاح غير عادي، ثم سرعان ما اختفى هذا المشهد وأتت صورة أبويه وهم يفتخران به كما وصفهما لها من قبل.

مـرت أيـام خمس ولـم يعد أبواه مـذ أن تركاه عندمـا ذهبا ليجمعا لـه الطعـام مـن أقصـى الجزيرة، مـر الوقت عليه وهـو يتضور جوعًـا وألمًا وبـكاءً، ولـم يتحـرك لـه مـن الأعـداد الهائلـة فـوق الشـجرة، طائـر واحـد ليطعمـه، كانت الشـجرة هي شـجرة السـدر ذاتهـا، التي تمتـد فروعها أمام القفـص الـذي هو بـه الآن.

بـدا كأن المـوت يقتـرب منـه، ولكـن سـبقت يد سـيده يـد الموت التـي قـد أحاطـت بـه، حملـه علـى كفيـه ووضعـه فـي القفـص ذاتـه، كان ضعيفًـا وهزيـلًا، رعـاه وولاه حتـى اشـتد عـوده، ووضـع له أنثـى من نفس فصيلتـه بـدت لرانسـي كأنهـا زوجته، كانا يعيشـان حياة طبيعيـة، ليس بها أي تشـويق يذكـر، كان يبتسـم لزوجتـه ولكـن ثمة جـرح كان يخفيه ولكن ملامحـه كانـت تفضحه.

كان ودودًا معهـا، وكانـت هـي تعاملـه مثـل ابنهـا البكـر، لتعوضـه عـن مرحلـة اليتـم التـي عاشـها، فمـا أجمـل أن تكـون الزوجـة بمثابـة أم لزوجهـا، ومـا أجمـل أن يحيـا الـزوج طفـلًا فـي أحضـان زوجتـه، وبعـد أن أنجبـت لـه طفليـن يشـبهانه، حملهمـا سـيده برفـق وأبعدهمـا عنـه.

حـزن بـارون حزنًـا شـديدًا، عندمـا انتزعـت وليفتـه منه، فلـم يجد سـوى الغنـاء ملجـأ لـه، ليهـون عليـه أوجاعه.

ومـن ثـم انتقلـت الصـورة أمامهـا واتضحـت أكثـر بعـد أن كانـت ضبابيـة بعـض الشـيء، رأت إناثًـا كثيرة في لقطات متفرقـة، فمنها من كان يبتسـم لهـا ومنهـا مـن كان يحمـل سـمة دمـع فـي عينيـه. فرحت رانسـي عندمـا رأتـه وهـو يلبسـها التـاج الـذي صنعـه وهمـا يبتسـمان، فعلمـت بذلـك أنـه لـن يتركها.

لـم تحـاول أن تسـأله عـن شـيء ليفسـر لهـا مـا تـرى، فقـد يقطـع سـؤالها عنهـا الرؤيـة، لـذا فالتزمـت الصمـت، لتكمـل المشـاهدة.

انفتـح أمامهـا قلبـه فجـأة وانشـق، فخطـت بداخلـه ببـطء وهـي تترقـب، فوجـدت به ثـلاث حجـرات مضيئة، ورابعـة مظلمة، وكان يسـكن فـي الثلاثـة حجـرات المضيئـات حـب سـيده، لـذا كانـت رائحتهـم الجنـة وحافتهـم الأشـجار وطوقهـم لفيـف مـن ورد طيـب.

حاولـت رانسـي أن تدخـل الغرفـة المظلمـة، لكـن شـيئًا مـا منعها، مـدت بصرهـا ونظـرت مـن خـلال البـاب المفتوح قليـلًا، فوجـدت الخوف بـكل أنواعـه يقيـم فـي كل ركـن فيها.

تعجبـت رانسـي مـن كل ما رأت وتسـاءلت في نفسـها كيف لقلب أن يحيـا وبداخلـه كل هذا الألم.

لم تحاول أن تتحرك كما أمرها لكي لا ينقطع البث، لكن دموعها عندما تساقطت منها فصلت الاتصال بينهما، فانقطعت الرؤية عنها فجأة.

فتحت رانسي عينيها فوجدت خد بارون قد تبلل بالدموع، فأنزلت جناحها من فوق رأسه، وضمته إليها وبدآ يبكيان معًا، دون أن يتلفظ أحدهما بحرف، واكتفيا بأن تتكلم مشاعرهما عسى أن تقول ما قد أخفاه صدراهما.

بعد هنيهة أبعدها بارون عن حضنه بهدوء ثم أخذ زاوية في القفص واسترسل في البكاء.

شعرت رانسي بالذنب لأنها بسؤالها الغبي ذكرته بطفولته التعيسة المجردة من الحياة.

فتحركت نحوه وربتت على كتفيه، لتُهدئ من روعه.

فأومأ هو برأسه إليها وكأنه كان يقول لها في صمت: لا عليك فكل شيء سيعود إلى طبيعته.

فالحياة لا بد لها أن تستمر، فبعد كل فيضان أو بركان أو زلزال، تعود الحياة إلى طبيعتها بل أحيانًا تعود أجمل مما كانت، هذا ما طرأ في فكر رانسي، فدب في روحها الأمل، فتبسمت له، لترى ابتسامته التي غابت عنه، فبادلها هو أيضًا بابتسامة ما زال يكدرها الحزن، ولكنه تبسم في نهاية الأمر.

بـدأت رانسـي تفكـر كيـف تنــزع هـذا الخـوف مـن داخلـه ليحيا حيـاة طبيعيـة، كانـت تعلـم أن الطائـر إذا تعـرض لخـوف أكبر، فسـيصغر هـذا الخـوف فـي عينـه، فهي عندمـا اطلعت بداخلـه رأت الجنـة بنعيمها، لكنهـا كانـت تتـآكل مـن أطرافهـا من عظـم النار التـي تحيط بهـا، من تلك الحجـرة المظلمة.

وطـرأ علـى رأسـها أسـئلة لـم تعـرف لهـا إجابـة، كأن تعـرف كيـف يسـعى لإرضاء سـيده ويرضي نفسـه فـي آن واحـد، وكل منهما يريد عكس مـا يريـده الآخـر، وكيـف يحـب سـيده بهـذا القـدر، ويخـاف منـه أضعاف هـذا الحب.

فالحـب دائمًـا مـا تأكلـه نار الخـوف، ولا بد علـى الطائـر أن يكون مطمئـن الـروح مـع مـن يحب، ولا يخشـى إن ارتكب خطأ فهـذا لن يجعل مـن يحبه يغضـب منه.

طرأت فكرة على رأس رانسي ثم سألته وقالت: أتحبني؟

تحـرك بـارون مـن مكانـه فـي عكـس اتجـاه البـاب قليـلًا فصـارت رانسـي خلفـه وقـال لهـا وهـو يوليهـا ظهـره: لقـد رأيـتِ مكانتـك عنـدي.

أعادت السؤال عليه، فلم تتغير إجابته، فقد بخل أن يقول لها أحبك.

اعتـذرت رانسـي له، فقبـل اعتذارها دون أن يديـر وجهه إليها لكي لا تفضحـه عينـاه المليئتـان بالحـب، ثـم عمّ الصمـت للحظة، وبعـد برهة أدار وجهـه ليسـألها لـمَ أنـتِ دائمة السـؤال ولكـن قبل أن يكمـل مقولته، فوجـئ بـأن ليس لهـا وجود فـي القفص.

انقبضـت روحـه وعـلا نبضـه، ثـم توقـف قليـلًا مكانـه حائـرًا ثـم ذهـب مسـرعًا فـي اتجـاه البـاب المفتـوح، ووقف ينظـر وهو علـى عتبته يمينًـا ويسـارًا، عسـى أن يلمـح طيفهـا هنـا أو هنـاك أو على الشـجرة التي أمامه.

ظـن فـي بـادئ الأمـر أنهـا تلعـب معـه أو أنهـا مختبئة منـه، لكنه كـذب هـذا الظـن عندمـا ناداهـا ولـم يجبـه صـوت، فكـر فـي أن يطيـر ويبحـث، لكـن إلـى أيـن يذهـب في هـذا الفضاء الواسـع، وفـي أي طريق عليـه أن يسـلك، وقـف أمـام بـاب القفـص حائـرًا تائهًـا لا يدري مـاذا عليه أن يفعـل ليسـترد الجنـة التـي ضيعهـا مـن بيـن يديه.

بـدأ يحـدث نفسـه بصـوت مرتفـع علـى غيـر وعـي منه، من شـدة الوجـع الـذي ألـم بـه منـذ أن فقدها، وشـرع يهـذي قائلًا:

أنـا مـن طلبـت منهـا الرحيل، يـا ليتها لبت هـذا الأمر، مـن قبل أن يـزداد قلبـي تعلقًا بها.

عـاد إلـى داخـل القفـص ثـم وقـف فـي منتصفـه، ثـم دار دورةً كاملـة، وبـدأ يخيـل إليـه طيفهـا فـي كل زاويـة مـن القفـص فمـرة كانـت تظهـر لـه ضاحكـة، ومرة أخـرى وهي تبكي، فيجـري عليهـا ليحضنها، لكنه كلمـا وصـل إليهـا لـم يجدها شـيئًا.

و بـدأ شـريطٌ مـن الذكريـات يمـر أمـام عينيـه، كلمـا وقـع بصـره علـى مـكان كانـت فيـه، نظـر في أسـى شـديد، إلـى القضبان التـي تحيطه مـن كل جانـب، ثـم طـار بجناحيـه ووقف علـى الحلقة المدلاة من سـقف القفـص، ثـم اسـتقرت أقدامـه بعـد أن اهتـزت بـه وأرجحتـه قليـلًا، وظهـر فـي عينيـه لمعـان دموعـه التي يحبسـها بيـن قضبان رمشـيه.

فما أشبه هذا الطائر المسكين بدمعه!

لـم يكـف عـن لـوم نفسـه، وظـل يجهـر بآلامـه وأوجاعـه، لقد ظن أنـه سـيجد الراحـة التي يبحـث عنها، في رحلتـه إلى الطمأنينة والسـعادة، لكـن هـواه ما جلـب عليه، سـوى ريـح عاتية مزقـت روحه.

أحـس برعشـة فـي جسـده وكأن البرد اخترق جسـده وعشـش بين ضلوعـه، وشـعر بـأن دمـاءه تجمـدت فجـأة، تحسـس ريش جسـده فوجد أنـه ما زال يكسـوه.

كان يظن أنه صار مثل الشجرة التي أمامه في موسم الخريف.

تمنى أن لو كانت معه الآن فتدفئه، ليتنحى هذا البرد عنه جانبًا. انسابت دمعاته فوق خديه كشلال عذب، حتى بلل أرضية القفص ومن ثم علا نحيبه، فغرد وشدا، فأطرب كل من حوله بجمال صوته وبهاء حزنه، وقال محدثًا لها كأنها تمثلت أمام عينيه:

عودي يا أميرتي، وانثري الورد عطرًا فوق روحي، هبي لقلبي حياة غير هذه الحياة، إنى أرى طائر الموت يتربص بي كلما اقتربت منك، أحاول أن أوقف هذا الدمع، لكن لولا هذا الدمع لازداد ظمئي، إن الحاجز بيني وبينك ليس هذا الباب، إن الحاجز بيني وبينك عاداتي وتقاليدي.

هدأ قليلًا وصبر نفسه قائلًا، إن لكل جرح وخزًا في البداية، وساعاتٌ ويهدأ ويلتئم وحده، أما عن الأثر الذي يتركه.. فنحن المحتاجون إليه، ليذكرنا أنا كنا نعشق يومًا.

لم يحز فيه غير أنه أجهد نفسه للحصول على شيء، يعلم بأنه لن يكون له نصيب فيه.

وإذ هو غريق في دمعه وأفكاره.

فجأة رأى رانسي عند الباب أمام عينيه، خيل إليه في بادئ الأمر أنه يحلم، لكنه سرعان ما هبط من فوق الحلقة المعلقة، وبمجرد أن استقر أمامها جذبها نحوه يضمها إليه، وكأن روحه التي صعدت منه قد ردت إليه، وبعد هنيهة تراجع عنها خطوة إلى الخلف وقال لها بصوت طبيعي بعد أن حاول أن ينزع منه نبرة الحزن التي اعتلته: أين كنتِ؟ قالها وكأنه لم يكن يكترث لأمر غيابها.

قالت وهي تبتسم: لقد كنت أسفل القفص وسمعت كل ما قلته.

ضحك بارون وأنكر أنه قال شيئًا، واتهمها أنه قد خيل لها سماع ذلك، حتى قبل أن تذكر له ما سمعت منه، ثم استرسلت قائلة: أصبحت أحسد نفسي أن على هذه الجزيرة من يحبني بهذا القدر.

أشاح وجهه عنها قليلًا وقال في نفور: من قال ذلك؟

ارتبك قليلًا بعد أن نظرت إليه وكأنها لا تصدقه.

ثم قال: أتقصدين الكلمات التي استمعتى إليها، لا، أنا فقط كنت أقولها لتعودي، وها أنت قد عدتِ، كلها أشياء تظاهرت بها، تستطيعين أن تقولي إني كنت أمثل عليك.

حـاول بـكل الطـرق أن يثبـت لهـا عكس ما سـمعت منـه وصدقته، ثـم قالـت لـه: إن الممثـل لا يجيـد البـكاء، وعلامة ذلـك أن بـكاءك لم تزل آثـاره علـى الأرض، وأشـارت إلـى أرضيـة القفـص التي قد تبللـت بدمعه.

أجابهـا بـارون قائـلًا، إن الممثـل الجيـد هو من يلعـب دوره بإتقان ويقنـع كل مـن حولـه بكذبـه ولو كلفـه ذلك الأمـر بعض من دمـع عينيه.

لـم تصـدق هلوسـته فـي الهروب منهـا، واكتفـت بأنهـا تيقنت من أنـه يحبهـا، فمـا عاد الأمر يفـرق معها، ولو خبـأ ذلك عنها، فمـا عرفته الآن قـد يكفيهـا أن تبقى معـه عمرًا.

طـرأت عليهـا فكـرة، أن توقع به، وذلك بأن تختبـر قدراته التمثيلية كما يزعم فتنسـب إليـه دورًا ليقوم به.

أعجـب بـارون بالفكـرة بعـد أن عرضتهـا عليـه وقـال فـي حمـاس شـديد: أنـا مسـتعد لأن أثبـت لـك صحـة مـا قلـت.

طلبـت منـه أن يقـوم بدور العاشـق، لقـد كانت متلهفة أن تسـمع منـه كلمـات الحـب، فمهمـا كان مقـدار الحـب الـذي يحملـه الحبيـب لحبيبـه، لا فائـدة منـه إن لـم يبـده إليـه. فأقل الأشـياء عدلًا هـي أن يقول الحبيـب لحبيبتـه أحبك.

فطن بارون لما حاولت أن تخفيه عنه، ثم سألها ماذا بعد؟

قالت: تخيل أن هناك عصفورة لا تحبك، ثم أشارت إلى نفسها، ثم أكملت قائلة: وعليك أن تجعلها هائمة بك وتقنعها أن تميل إليك في خمس دقائق.

ثم بدأت رانسي وأعدت نفسها كأميرة حسناء، واستعملت عينه كمرآة لها ثم تبسمت إليه وقالت: أنا سأقف على هذا الفرع الممتد، القريب من القفص، وستأتي أنت كطائر غريب، يقف بجانبي ويطلب الحديث معي.

كانت رانسي على استعداد بأن تفعل أي شيء، لمجرد أن تخرجه من هذا السجن الذي يعيش فيه.

حاول هو أن يقنعها أنه في استطاعتهما فعل ذلك داخل القفص، وتعلّل بأنه يخجل أن يلاحظه أحد من هؤلاء الطيور الساكنين على تلك الشجرة التي أمامهم، لكن رانسي كانت جاهزة الرد وقالت: إن الممثل لا يخجل.

تقبل بارون الأمر وسلم به على مضض، وسبقته رانسي ورفرفت طائرة خارج القفص حتى وقفت على الفرع التي أشارت إليه منذ قليل، فتبعها بارون.

فلما استقر بجوارها، نظر أسفل قدميه، فشعر بأنه سيسقط، ورأي كم أن الأرض بعيدة عنه، فتماسك خشية أن يسقط، وحاولت رانسي أن تساعده، فأمسكت به ولكنه أبى، وبعد أن استقرت قدمه رفع بصره إلى حبات النبق التي تدلت فوقه، ثم أعاد بصره إليها وألقى عليها السلام بصوت مختلف، فعلمت رانسي أنه بدأ التمثيل، فتجاهلته، فقام بإعادة السؤال عليها فقالت في حدة: ماذا تريد مني؟

شكا بارون غربته، وقال إنه قادم من مكان بعيد وإنه قد أرهقه السفر، وسألها طامعًا في أن تسمح له بأن يظل بجوارها، مستشهدًا بأن ذلك سيخفف من آلامه.

اتهمته بالتسول، وقالت له: دعني أبحث لك عن شيء تأكله. نظر إلى عينيها الجميلتين برغبة شديدة، نظرةً أفقدتها مواصلة الحديث معه. فنهته أن ينظر إليها بهذه الطريقة لكنه لم يكن يسمعها، كان غارقًا في بحر عينيها اللتين تغلبتا بموجهما عليه، لكنه سرعان ما مد يده من هذا البحر اللجي، وتمسك بأهدابها التي كانت بمثابة القشة التي أنقذته.

كان يكفي لرانسي هذه النظرة منه، فقد روت بعض من ظمئها، وتمنت وقتها لو لم يكن ذلك تمثيلًا.

سألته قبل أن تغرق معه في عينيه اللتين تطل منهما طيور العشق، وقالت: لا تمد نظرك إلي هكذا، تأدب فأنا لا أعرفك.

قال بارون مغازلًا لها: في حضرة هذا النور الساطع من عينيك، ماذا تنتظرين ممن عاشوا في الظلام الطويل؟!

كانت كلماته تفتح أبوابًا في قلبها لم تكن تعرف عنها شيئًا من قبل، وأحست أن الهزل قد اختلط بالجد عليها، وأصبحت لا تستطيع أن تسيطر على مشاعرها كما كان يفعل هو، لذا لم يكن في مقدورها سوى أن تسأله أن يكف النظر عنها.

اقترب بارون منها قليلًا محاولًا أن يتحاشى النظر إلى أسفل منه، اقترب حتى التصق جناحه الأيسر بجناحها الأيمن، سألته رانسي من أعطاه الحق في أن يسمح لنفسه أن يلمسها، فهي لم تأذن بذلك.

قالت ذلك على عكس رغبتها، فلو عليها لبدأت بذلك، لكن عليها أن تكمل المشهد الذي بدأته.

ثم قالت رانسي له: إني على صلة وطيدة بكل هؤلاء العصافير على الشجرة من حولنا، وإن لم تنتهِ عما تفعل، سأجعلهم جميعًا يهجمون عليك، ظل ينظر إليها بارون بنفس تلك النظرة التي لا تستطيع رفضها، ثم اهتز قليلًا وكاد في هذه المرة أن يقع بالفعل، تمسكت

رانسي به وضمته إليها، فضمها هو الآخر، وظل ينظر إلى عينيها في شغف، فعلمت أنه قد خرج عن النص لكنه ما زال متشبثًا بشخصيته، فخلع منها قلبها، لخوفها عليه من السقوط، لكن اتضح لها بعد ذلك أنه كان يتلاعب بها.

قالت في صمت واستسلام وهي بين جناحيه إن لم تتركني سأجعل الطيور تهجم عليك.

قال بارون وهو يمرر أنفاسه إليها ببطء شديد، وعيناه ما زالتا ثابتين على عينيها: لن أدعكِ حتى أقبل خديكِ.

قالت بعكس ما بداخلها: لن أسمح لك. لكنها كانت تهمس بعينيها إليه وتقول: هيا افعَلْ قبل أن أفعلها أنا.

أجابها بارون قائلًا: لكنني أعرفك وأحبك وأشعر بأننا تقابلنا في الماضي وتبادلنا القبلات لوقت طويل.

ذابت في عينيه عشقًا، وبعد أن ضمته إليها أكثر، فأغمضت عينيها استعدادًا لهذه القبلة التي تنتظرها لتحييها، قالت في شوق: هيا افعلها ولو لدقيقة واحدة.

ضحك بارون فجأة بصوت مرتفع وقال:

إن الخمس دقائق قد مرت، ثم أبعدها عنه بعد أن التصقت به، ثم طار عائدًا إلى قفصه.

لقد فصلها بطريقته المستفزة عن الحلم التي كانت تعيشه معه، وشعرت بسعادة كادت أن تكتمل، وعلى الرغم من أنها قد تضايقت من فعله، فإنها أحبت ما قد نالته منه في تلك اللحظات ولو كان ما نالته بالكذب البين.

وسريعًا أيقظت نفسها من هذا الحلم الجميل، ثم طارت خلفه بسرعة لتلحق به وهي تقول بحرقة: سأنتقم منك!

الساعة الخامسة

و أشرقت الشمس وأعلنت عن وجودها بقوة، وتربع النهار على عرش الجزيرة، وبدأ النهار يوجه أشعة الشمس على كل شبر فيها ويسكب ضوءها ويصبه صبًا فوق رؤوس ساكنيها، وبدأ الدفء يواصل مسيرته، ويطارد نسائم البرد التي خيمت على الجزيرة في الساعات الأولى من هذا الصباح، وبدأت الطيور في السعي إلى أرزاقها، بعد أن قيد الضباب بعضًا منها في أعشاشها، وتبسمت الزهور كعادتهن، وتفتحت كل واحدة منهن، كأنثى تنفض عنها الكسل، فكانت الشمس هي أول من أبصرن، فتمايلن لها يحيينها راقصات، وطربن عندما وصلت موسيقى النهار إلى آذانهن، فتحركت أعوادهن دون أن يشعرن، ودبت على الأرض الحياة.

الحياة التي اغتصبها الليل من أهلها، فسلبت منهم قوتهم، لذا ناموا مستسلمين بضعفهم ولعدم قدرتهم على أن يبصروا في هذا الظلام الحالك.

كان أهل الجزيرة يفتخرون بأن الشمس يأتي قرصها كاملًا كل يوم، على عكس القمر الذي كان يأتي كل يوم ويطل عليهم بوجه مختلف، وبدأ النهار يسلط ضوء الشمس على الطعام ليجففه من الندى الذي أسقطه الليل عليه، لكي تبصره الطيور دون عناء، وسلطه أيضًا فوق كل درب ليعود التائهون عن أهلهم، بعد أن حال الظلام بينهم.

فهذا فضل النهار الذي لا ينكره سوى جاحد أو معتم القلب.

استراح النهار على عرشه، سعيدًا بالنصر الذي حققه، وبالنور الذي أرسله إلى الطيور كافة، فبدا عليه الرضا والسعادة والارتياح.

نادى النهار في أهلها الغافلين عن نعمته وسخائه، وقال بصوت مهيب:

أيها الطيور حافظوا على هذا النور الذي حل عليكم، واغتنموا شيئًا منه، يساعدكم في أن تبصروا في ظلمائكم، فإن دوري قد أشرف على الانتهاء، وما عليكم غير أن تملؤوا صدوركم وعيونكم بالنور الذي أفضت به عليكم، فمهما طال مكوثي بينكم فلن أظل أكثر مما قدر لي أن أظل، فقد يأتي نهار آخر عليكم وقد لا يأتي، قد يكون أشد ضياءً مني وقد لا يكون، فحاولوا أن تجعلوا من أنفسكم نورًا يحميكم من تلك الظلمات القادمة لا محالة، فقد خطط أعداؤكم لها منذ عهد بعيد، أعداؤكم الذين يمدون الليل بكل طاقتهم ليستولوا علي اليوم كله لصالحهم، لكي لا تبصروا حتى أنفسكم، فأعدوا لهم ما استطعتم للتصدي لهم، فأنا لن أستطيع أن أظل موجودًا بجواركم طول الوقت، فإن بعد كل قوة ضعف، وبعد كل نور ظلام.

كان لصوته العظيم صدى فوق كل أرجاء الجزيرة، لكن لم ينصت له إلا القليل من الطيور، أما بقية الطير، فلقد كانت الدنيا تشغل بعضهم، إما بالسعي على أرزاقهم وإما باللهث خلف شهواتهم.

لـم تكـن رانسـي تلقـي بالًا لهـذا الصوت الـذي كانت تسـمعه منذ أن انتبهـت لـه مـن يومهـا الأول، وكانـت لا تفهـم مـن حديثـه شـيئًا، فهـي جديـدة فـي شـرق الجزيـرة وإن كان بعـض الطيور في هجرتهـم إلى غرب الجزيـرة، كانـوا يقولـون كلمـات متشـابهة، لكـن لـم يكـن فيهم مـن يملك لسـانًا طلقًـا ليجعلهـم يستحسـنون قوله ويصغـون إليه.

كانـت رانسـي منهمكة فـي الطعام الـذي قدمه إليها بـارون عندما تذكـر أنهـا لـم تذُق شـيئًا منذ الصبـاح، فكانـت تلتقط الحبات فـي هدوء، ولـم يشـاركها بـارون الطعـام، واكتفى أن يشـاهدها وهي تـأكل أمام عينيه للمـرة الأولـى، لـذا اكتفى بأن يشـبع عينيـه منها.

طلبـت رانسـي منـه بعـض المـاء بمـا أن المـاء قـد كان قريبًـا منه، وسـألته أن يحضـر لهـا بعضًـا منـه بفمه، ثـم يضعه فـي فمها وهـو يقبلها.

خجـل بـارون مـن حديثهـا ولـم يطاوعهـا فـي أفكارهـا المجنونـة، وقـال لهـا: عليـك الاعتمـاد علـى نفسـك.

ألحت عليه في أن يحاول ووعدته وهي تضحك وقالت: فقط أفعلها وسوف أرد لك هذا المعروف، بنفس الطريقة، إذا أصابك العطش يومًا.

نظـر إليهـا بـارون فـي تعجب وهـز رأسـه يمينًا ويسـارًا مسـتعجبًا مـن أفعالها.

انتهت رانسي من طعامها وذهبت إلى الماء الذي كان بجواره ومدت منقارها في الماء، فشربت حتى ارتوت ثم قالت له: لقد طلبت منك المساعدة فلم تساعدني لكني لن أفعل مثلك ولن أعاملك بالمثل، بل سأجود عليك وسأسقيك بنفسي، وسترى بنفسك كم سيزداد الماء عذوبة، عندما أنقله من فمي إلى فمك، وبعدها سأهديك قبلة تعيدك إلى الحياة.

أخذ بارون نفسًا عميقًا ثم ابتلع ريقه وقال في نفسه: ماذا عساه أن يحدث، لو جربتها مرة؟

شعرت رانسي بأنه استجاب لها، بعد أن بدا في عينيه استسلامه لأمرها، فانحنت وملأت فمها بالماء، ثم رفعت رأسها، وتقدمت نحوه ومدت منقارها إليه، واقترب هو أيضًا، حتى التصقت أنفاسهما وأجسادهما معًا، وشعر بجاذبيتها التي لا تقاوم.

وقبل أن يتلامسا بمنقاريهما ليرتوي كل منهما عشقًا، إذا بظلٍّ يقع طيفه على وجههما فجأة، فالتفت كل منهما ورفعا رأسيهما، في اتجاه الشمس، ليعرفا ما هذا الشيء الذي حجب عنهما الضوء فجأة، فإذا بصقر ضخم يتجه نحوهما بسرعة بالغة.

ابتلعت رانسي الماء الذي في فمها، وامتلأت رعبًا، واحتمت ببارون وصارت خلفه، نظر بارون إلى الباب المفتوح، فعلم أنه هو ما جلب عليهما هذا الشر.

فكر للحظة أن يسرع فيغلق الباب، لكن سرعة الصقر جعلته لا يرجح هذا الرأي، فتراجعا إلى الخلف حتى التصق جسداهما بقضبان القفص، ولم يكادا يلتقطان أنفاسهما إلا اقترب الصقر منهما بلونه الأسود المخيف وعينيه الثاقبتين ثم تشبث في القفص وفرد جناحيه حوله وطوقه بهما، ومد برأسه من باب القفص عليهما، لكن الباب لم يكن فيه متسعٌ ليدخل منه إليهما.

ظل الصقر يغقغق بأصوات تخيفهما، وبدأ يأرجحهما بالقفص، في محاولة منه أن يجذبهما نحوه عند تمايل القفص بهما، لكن كلًّا منهما تشبث بشدةٍ بالآخر، وبدأ الصقر يضرب بكلا جناحيه على جانبي القفص، ليزحزحهما من مكانهما.

فطن بارون إلى أن حجم الصقر أضعاف فتحة الباب وهذا ما سيجعله غير قادر على أن يصل إليهما، فاطمأن وأوصى رانسي أنها في أمان إن لم تترك مكانها مهما حاول أن يفعل.

هدأت قليلًا عندما اقتنعت بذلك، وخطر لها أن تنتهز الفرصة وأن تلقي بنفسها في حضن بارون، لم ينتبه بارون إليها وهي تفعل ذلك وأمرها أن تحترس من مخالب الصقر فإن طالتها قد تؤذيها، فدائمًا ما كان يخاف عليها.

وتمنى بارون أن لو جاء سيده على غير موعد، فهو الوحيد القادر أن يخلصهم مما وقعا فيه، ثم عاد يفكر ويسأل نفسه ماذا لو جاء ووجدها معه؟ ماذا سيكون رد فعله؟

صرخت رانسي فجأة عندما مسها الصقر بمخالبه فنال ريشة منها ولكن لم يصبها بسوء، فانتقلت سريعًا من يسار بارون إلى يمينه.

قالت وهي تسأله في غضب: لماذا نحن دون غيرنا؟ لماذا ترك كل الطيور الحرة في الخارج وأتى إلينا؟ فهناك الآلاف من أمثالنا على الأشجار!

رد بارون مقاطعًا إياها وقال: عسى أن نكون في عينيه أثمن من غيرنا، وإذا كنا نرفض وقوع الشر لنا فلا يحق لنا أن نتمناه لغيرنا، هذه هي مشكلتنا وعلينا التخلص منها بأنفسنا.

كان يزعج الصقر أنهما يتحدثان معًا ولا يكترثان لوجوده، وأنه قد لمح في أعينهما أنهما ليسا بخائفَين منه، لذا حاول قدر استطاعته أن يمد برأسه، ليزيدهما خوفًا، وبدأ يفتح فمه ويغلقه ولم يكف بصوته العالي عن إخافتهما، واقترب أكثر منهما حتى انتزع بمنقاره ريشة أخرى من صدر بارون .

ارتعبت رانسي من نظرة الصقر إليهما، وألبسها الخوف رداء الجبن، وألقت باللوم على باورن، واتهمته بأن خوفه هو من استدعاه

إليهما، ظنًا منها أنه شم رائحة الخوف التي صعدت منه، لم يلق بارون بالًا لما تتفوه به، فهو يعلم أن لا لوم على حديث خائف، ثم قال لها: ألم أقل لك إن الباب المغلق يمنع عنا الأذي، لقد كنت أرى هذا الصقر من حين لآخر عندما أرفع رأسي إلى السماء، لم أتذكر بأنه نظر مرة إليَّ، أظنه عندما وجد فرصة واحدة قد تمكنه منا، لم يتوانَ عن أن يقوم بواجبه.

كانت رانسي لا تسمعه بوضوح، رغم أن صوته كان مرتفعًا من تلك الجلبة التي يحدثها الصقر، ثم قالت في غضب: أنت السبب في كل ما نحن فيه، لو طاوعتني لكنا أحرارًا، وهذا جزاء عندك ورفضك، فلو كنا خارج هذا القفص الآن لما استطاع أن يحاوطنا هكذا، غير أن وقتها سيكون هناك ألف مخرج يساعدنا في الفرار منه.

لم يكف الصقر عن مداهمتهما من آنٍ لآخر، ووقع الطعام وانسكب الماء على أرضية القفص من ضربه المتكرر بجناحيه على جانبيه.

شعر الصقر بالهزيمة أمام عصفورين لا طاقة لهما به، فدائمًا ما يحز في النفس لدى الأقوياء، صمود الضعفاء أمامهم، من دون إبداء أي خوف منهم.

وكأن بارون قرأ في عيني الصقر حديثه لنفسه، وعلم أن خيبة الأمل لن تجعله يتراجع بسهولة عنهما حتى يرى انكسارهما أمام عينيه.

أمـر بـارون رانسـي أن تتظاهـر بالخـوف أمامـه وتصـرخ قـدر مـا أمكـن لهـا، وأن تسـقط بعـض من دمعهـا أمامه، وأنـه أيضًا سـيفعل مثلها.

عندمـا بـدآ فـي التمثيـل عليـه وأتقـن كل منهمـا دوره ببراعـة، بدأ صـوت الصقـر يهدأ ثـم بدأ يتراجع وأخرج رأسـه من القفـص، وظل يلتفت يمينًـا ويسـارًا والحيـرة تملـؤه، وكأنـه يسـتحيي أن يتخـذ قـرار انسـحابه، ومـن ثـم قـرر أن يتركهمـا بعد أن شـعر أن بعضًـا من هيبته قـد ردت إليه، وأنـه مـا زال هنـاك طيـور تخافـه وتبكي فـي حضرته.

قرر الصقر أن يذهب ولكن ما زال في عينيه توعدًا لهما، كأن لسان حاله يقول: لنا لقاء آخر، التقط الصقر أنفاسه بعد المجهود الذي ضاعفه في محاولاته الفاشلة في أن يجعلهما يستسلمان له، ثم ولى الصقر ظهره إليهما وطار حاملًا هزيمته التي لم يحاول أن يعترف بها أمام نفسه.

كان كل مـن رانسـي وبـارون يراقبـان خطـوات انسـحابه، دون أن يكـف كل منهمـا عـن البـكاء والصـراخ، الـذي افتعلاه حتـى تأكـدا أنه طار وغـاب عـن أعينهما.

نظر بارون إلى رانسي، يهنئها بانتصارهما عليه بضعفهما لا بقوتهما، لكنه وجدها قد اعترتها نوبة بكاء عارمة، وكأنها كانت تنتظر تلك الفرصة لتبكي، نظر بارون إلى عينيها الدامعتين اللتين اشتد بريقهما ولمعانهما وقال لها: إن عينيكِ شمسان دامعتان في سماء وجهك الضحوك، فخفّفي ضوءَك قليلًا، حتى نستطيع أن ننظر إليكِ.

تبسمت وهي تدمع، بعد أن لمست كلماته شغاف قلبها المتيم به، وقالت في نفسها: وكأنه قد أصبح فرضًا على الطائر، أن يبكي ليسمع ما يملأ نفسه سعادة وراحة.

نظرت إليه وبرق دمع عينيها الذي اختلط ببعض الحزن، وقالت له: أشكرك على أنك جعلتني أبكي، فكم كنت في احتياج إلى هذا الدمع!

رد بارون عليها والابتسامة ملء عينيه، وقال: لا بأس.

ثم هم بتعديل الوضع الذي خلفه الصقر جراء الفوضى التي أحدثها، وبدأ يجمع الحَّب المتناثر، ويضعه في وعائه، وكان التاج أيضًا قد تحرك عن موضعه إلى آخر القفص، فأعاده إلى مكانه وقام بتنظيف المكان، على أكمل وجه، فعاد كل شيء إلى طبيعته، ومن حسن حظهما أن الماء لم يسكب كله على الأرض، فالقليل الذي بقى منه، روى به رانسي، ليُهدئ من روعها.

فشربت، ثم شرب بعدها هو الآخر.

طارت رانسي ووقفت على الحلقة المدلاة من سقف القفص، ثم لحقها بارون عندما رأى أن هناك متسعًا له.

حاول بارون أن يقنعها بأن تترك هذا المكان، وأن تعود إلى موطنها، فهي الآن حرة، خشية أن ينتهي بها الحال هاهنا حيث لا حياة ولا أمل، واسترسل قائلًا: إن كل شيء من حولنا لو أبصرناه جيدًا، لابتعدنا على الفور، فالإشارات كلها كما رأيت ضدنا، ولقد رأيت بنفسك عند مجيء الهدهد الذي حذرني برسالاته وبطريقته غير المباشرة، ومن بعدها الصقر الذي هجم علينا، حتى كاد أن يزهق أرواحنا.

نظرت إليه رانسي بعينيها الذابلتين بعد أن جف دمعهما: أتؤمن بالإشارات؟

أجابها بنعم وأكمل قائلًا: إن كل الإشارات التي تحدث أمامنا ما هي إلا رسائل كونية، تأتي في هيئة أشخاص أو علامات، فليس هناك شيء يحدث من قبيل الصدفة، مثالًا، فقد يسلك الطائر منا طريقًا غير الذي قدر له أن يسير فيه، فسرعان ما تظهر له علامات تحذيرية، تجعله يفكر بالعودة سريعًا إلى ما كان عليه، أما من لم ينتبه ببصيرته لتلك العلامات، فقد تؤدي به الطرق إلى ما لا يحمد عقباه...

قاطعته رانسي قائلة: أنت تفعل كل ما بوسعك لكي تدفعني إلى أن أذهب بعيدة عنك، ونسيت أن لقاءنا لم يحدث من قبيل الصدفة، ثم سألته وقالت: هل تفعل ذلك من أجل عصفورة أخرى في حياتك، هل تريدني أن أذهب لتذهب من بعدي إليها؟

تعجب من سؤالها الذي تخبطت به وألقت به في وجهه دون وعي منها، وتعجب من أنها تسأل عن أشياء تعرف جيدًا الإجابة عنها.

وبعد هنيهة اتهمته بأنه يرى بعين واحدة وأن عينيه ترصد كل ما هو سلبي، فكم كان على الشجرة من محبين ولكن عينيه لم ترصدا سوى البلبل الخائن، وأعطته مثالًا آخر عن الأبواب التي فتحت لهما دون غيرهما من الطيور، ووصفتها بأنها إشارة خير، وقالت له لكنك أنت من رجحت الجلوس هاهنا.

أجابها بارون في صوت هادئ وقال: إنك لا تعلمين شيئًا.

ثم عادت وذكرته بطائر الزِّبرا الذي كان يتغزل بها من فوق سور الشرفة، وقالت إنها كانت إشارة خير لأنها بسبب ذلك علمت بأنه يحبها ويغار عليها.

قال لها بارون بصوت يملؤه الأسى: إني أريدك أن تجدي نفسك مع من هو أفضل مني، فلا تضيعي حياتك في انتظار ما قد لا يأتي، فهذا المكان لا يليق بك، فأنتِ منذ ولادتك تنعمين بالحرية لذا تعودتِ ما نشأتِ عليه، أما أنا فسأكون غريبًا عن نفسي إن تركت هذا المكان، إن هذا القفص أصبح بمثابة وطنٍ لي، ومَن مِن الطير يستطيع أن يترك وطنه، مهما ازداد نفورًا منه؟

كانـت رانسـي تعلـم أن مَـن أحـب أحـدًا عليـه أن يتمسـك بـه ولا يتركـه، ولـو قـام مـن يحبـه بدفعـه بعيـدًا عنه.

غيرت رانسي الموضوع قليلًا ومن ثم سألته عن يوم مولده.

كانـت تبحـث عـن أي شـيء قـد يكـون فيـه إشـارة تجمـع بينهما، فلعلهـا تسـتطيع أن تقنعـه بهـا، فيليـن قلبـه ويتبـع هـواه، فيدلـه عليهـا.

وبالمصادفـة اتضـح أن بـارون ولـد مسـاء ذاك اليوم الـذي وقع فيه النجـم الأبيـض فـوق التـل الكبيـر والذي بسـبب تلـك الحادثة لقـب بالتل الأبيـض، هكـذا أخبـره أحد سـاكني الأقفـاص من حولـه عندما كبـر قليلًا.

فـكان هـو نفـس اليـوم ذاتـه الـذي ولـدت فيـه رانسـي نهـارًا، فضحكـت رانسـي عندمـا علمـت بذلـك وقالـت ممازحـة له: أنـا خير منك ولـدت فـي النـور وأنـت فـي الظـلام.

أجابهـا بـارون قائـلًا: ومـاذا أضافـت ولادتـك إلـى النور؟ هـل زدتِ الكـون إشـراقًا، أو هـل أحـس بـك مـن أحد؟

لـم تضيِّـع رانسـي علـى نفسـها فرصة الـرد عليـه فقالت: تريـد إذًا أن تقـول أنـك عندمـا أتيت فـي الليل ملأت الكـون نورًا وضيـاء؟! من تظن حالـك؟! أنـت عصفـور لا حول لـه ولا قوة.

كانـت أشـد اللحظـات سـعادة هـي تلـك التـي تمـر عليهمـا وهمـا يتجـادلان ويتلاعبـان فيمـا بينهمـا بالكلمـات ولـم تحـاول رانسـي أن تلمح أن ولادتهمـا بيـوم واحـد إشـارة خيـر لهمـا، فلقـد شـعر بذلـك مـن تلقـاء نفسه .

فمـن بيـن هـؤلاء الملاييـن من الطيـور يتقابـل عصفـوران ولدا في يـوم واحـد، والتقيـا فـي قفـص واحـد، لـذا لـم يقتنـع أحـد منهمـا أن الأمر كان بصدفة.

قـد شـعر كل منهما بأنـه للآخر، ووضع كل منهمـا رهانًا أمام الآخر، بـأن كل منهمـا سـيقوم برصـد وعـدٍّ كل إشـارة تأتي أمـام أعينهمـا، والكفة التـي سـتطب في نهايـة الأمر، سـيحدّدان عليها مـاذا عليهمـا أن يفعلا.

وبينمـا همـا يتحدثـان إذا بصـوت شـجار قـادم مـن فـوق شـجرة السـدر التـي أمامهمـا.

إنهـا درة زوجـة البلبـل لقـد جـاءت علـى غيـر موعدهـا، ووجـدت محبًّـا يلهـو مـع إحـدى صديقاتهـا فـي عشـها، وعندمـا شـاهدتهما وهمـا يتبـادلان الحـب، لـم تصدق عينيهـا، وخيل إليهـا أنها تحلم في بـادئ الأمر وظنـت أنهـا علـى شـجرة غيـر تلـك التـي تعيـش فوقها.

درة كانـت قريبـة الشـبه بزوجهـا غيـر أنهـا كانت لها علامة سـوداء تحـت رقبتها.

هبـط بـارون ورانسـي مـن فـوق الحلقـة وأطلّا برأسـيهما مـن بين القضبـان ينظـران وينتظـران مـا سـوف يحـدث بينهما.

لقـد دب الغضـب فـي عـروق درة فهي لـم تتوقـع أن يخونها أقرب طائـر إليهـا، لقـد سـعت مـن أجلـه وتعبـت وجمعـت لـه الطعـام الـذي يشـتهيه مـن كل شـبر فـوق الجزيرة، لقد كانـت تضيء له مـن روحها نورًا، بـل كرسـت كل حياتهـا فـي خدمتـه ومـن أجـل سـعادته وفرحـه، وعندمـا احتـد بينهمـا الحـوار قامـت صديقتهـا التي كانت معـه وغـادرت وتركتهما وهـي تضـع رأسـها فـي الأرض منهـا خجـلًا، ولـم توجـه لـه درة أي لوم.

وجـاء رد البلبـل الخائـن "محـب" كالصاعقـة عليها وعلـى عكس ما توقعـت منـه، وألقـى هـو باللوم عليها أن جـاءت على غيـر موعدها ودون الطعـام الـذي طلبـه منهـا، وقـال فـي غضب: ليـس مـن الأدب أن تقتحمي علينـا العـش دون موعد.

لم تعرف المسكينة كيف ترد على هذه الوقاحة، وشعرت بضيق شديد وأحست وكأنه يجب علينا أن نعتذر إلى من أخطأ في حقنا.

ثم عاد يسألها: لم أتيتِ خاوية اليدين وبلا طعام؟

لم تكن تعرف ممَّ خُلِقَ هذا المخلوق!

ولامت نفسها أنها كانت السبب في ذلك، لأنها كانت تغمض عينيها في السابق عندما كانت تلاحظه من حين إلى آخر ينظر إلى صديقاتها، ومقتت بلاهتها لأنها هي من عرفته إياهم، كانت تثق به ثقة عمياء، ولكنه لم يكن محلًّا لهذه الثقة التي منحته إياها.

هددها محب بأنه سوف يذهب ويتركها ولن يعود إليها، ولم يكن لدرة خيار آخر، فقالت له: اذهب أينما شئت فلا حاجة بي إليك.

قالتها بعينين يملؤهما الدمع، بعد أن انكسر بداخلها كل شيء جميل، فالشيء الذي جعلها تأتي على غير موعد، هو أنها تأكدت وهي في ذهابها لجمع الطعام له، أنها حامل منه بعد طول انتظار، لذا عادت سريعًا لتخبره بأنها سيكون لها منه صغار عن قريب، لكن الفرحة لم تكتمل عندما فوجئت بخيانته.

ذهب زوجها وتركها وهو غير مكترث لشيء، قبل أن تخبره بأنه سوف يصبح أبًا عن قريب وأن هذا شرفًا كبيرًا له، ثم قالت في نفسها: كيف يكون هناك آباء يُمنحون هذا الشرف، وهم يخونون زوجاتهم في وضح النهار.

جلسـت درة وحيـدة فـي العـش تبكي حالهـا، وتنعـي فرحتها التي تبدلـت غمًّا.

ثـم قالـت ودموعهـا تـذرف مـن عينيهـا: يـا ليتنـي مـا جئـت علـى غيـر موعـد ،و ظـل محـب بجـواري.

شـاهد كل مـن بـارون ورانسـي مـا دار بينهمـا فـي صمـت، ولـم يُبـدِ أي منهمـا للآخـر أي تعليـق، ولكنـه حز في أنفسـهم هـذا القهر الذي مارسـه هـذا الخائن علـى زوجته، مما جعل رانسـي تتذكر قصتهـا الماضية وقالـت في نفسـها:

وكأن الذكـر يعمـل جاهـدًا علـى أن يفتـت عقـل الأنثـى، ليذهـب بمـا تبقـى منه.

الساعة السادسة

فـي السـاعة السادسـة أصبـح النهار سـاكنًا بعـض الشـيء، ولا يجد شـيئًا يفعلـه، لقـد كانـت الأجـواء رائعـة عندمـا كان هنـاك عـدو ينازلـه ويصارعـه، لـذا كان لحياتـه معنـى ولوجوده بريـق، فالمهمة التـي جاء من أجلهـا قـد أتمهـا وخلص أهـل الجزيرة من الظـلام الذي توغـل فيهم، وبعد أن أجـلاه عنهـم، وهزمـه شـر هزيمـة، جلـس بعدها علـى عرشـه كالعاجز بعـد أن أصابـه الملـل وملأ قلبه اليأس، لقـد كان الصراع جميـلًا وقد جعل لوجـوده معنـى ففيـه أظهـر قوته ودهاءه ومكـره على غريمـه الليل، حتى إن كل طيـور الجزيـرة تحاكـت عنه.

جلس النهار يرثي حاله ويشكو لنفسه الوضع الذي وصل إليه.

ثـم نظـر إلـى السـماء فجـأة، فوقـع نظـره علـى نجميـن باقييـن مـن الليلـة الماضيـة فـي وسـط السـماء، تخيـل النهـار أن الليل قـد تركهما ليتلصصـا عليـه، تعجـب كل مـن حـول النهـار وتسـاءلوا، كيـف أمكنـه أن يـرى الضـوء فـي الضـوء، فالأشـياء المضيئـة يصعـب أن تُـرى بالنهـار، ثـم عـادوا وتذكـروا بعدهـا أن النجـم الحقيقـي هـو من يظـل نوره ظاهـرًا في الحالتين.

أمـر النهـار حراسـه أن يأتـوا بهمـا إليـه، فأتـوا بهمـا مكبليـن،و أوقفوهمـا أمامـه، سـألهما النهـار:

ما الذي أبقاكما حتى هذه الساعة، لمَ لم تفرا مع الذين فروا عند مجيئي؟

أجابه أحد النجمين وقال: نحن نجمان تائهان ضللنا الطريق، وكما تعلم إننا لا نبصر في النور جيدًا، ولقد تكاسلنا في الليلة الماضية، وانشغلنا بالحديث معًا، حتى فوجئنا بحضورك، فقتلت من قتلت وأسرت من أسرت، لذا قررنا أن ننتظر حتى يأتي الليل علينا، لنستطيع العودة إلى ديارنا ولم يبق لنا سوى أن نسألك العفو، فنحن نتوسم فيك الخير، ونعدك ألا نتراخى ولا نعترض طريقك مرة أخرى، فنورنا مهما ازداد فلن يطغى على نورك.

سأله النهار وأشار إلى النجمة التي معه وقال: ألا تريد هذه النجمة أن تسمعنا صوتها؟

نظرت إليه النجمة في حياء، بعينيها الزرقاوين المشعتين بألوان السماء وقالت بصوتها الخافت الطروب:

سيدي.. لسنا بلصَّين لتعاملنا بهذه الطريقة السيئة، لتكبل أيدينا بهذا القيد.

نحن مجرد عاشقين، وهل من الكرم أن يعامل العاشق هذه المعاملة، القلوب التي تعشق سيدي ليس بها مكان لمعاداة أحد،

فنورنا الشفاف هدية منا لأهل الجزيرة، أما عن صراعك مع الليل فليس لنا شأن به، فنحن مثلك نحاول أن نكسر الظلام بقليل من النور، ونحن نعلم جيدًا أن عطاءنا ليس عظيمًا مثل عطائك، كل ما نفعله فقط هو أننا نحاول أن نسير على خطاك.

وقف النهار مذهولًا أمام هذه الكلمات الساحرة، التي لا تجبر من يسمعها سوى على العفو عنهما.

أشار النهار إلى حراسه، أن يطلقوا سراحهما، ثم دعا لهما بعمر مديد، وخلع النهار خاتمًا من إصبعه، وأهداه إلى النجمة، وأوصاها أن تهديه إلى نجمها، في ليلة زفافهما.

لقد بعث النجمان في النهار روح الأمل من جديد، ودفعاه بحسن خلقهما وقولهما، لبذل عطاء أكثر من المعهود منه، فكلما مر الوقت اقتربت النهاية وكلما اقتربت نهاية شيء ما، شعر هذا الشيء أن عليه أن يكثر من الصالحات، فعسى أن يمن أحد عليه ويذكره بعد موته ويدعو له بالخير، لذا كلما ازددنا ضعفًا، حاولنا أن نجد طرقًا بديلة تغنينا عن العنف لنحصل بها على احتياجاتنا دون خسائر.

كان هذا حديثًا جانبيًا في الأفق لم ينتبه إليه أحد من أهل الجزيرة، إلا القليلين، حتى رانسي وبارون لم يلق أحد منهما بالًا لما كان يحدث هناك، فقد كانا مشغولين بالإنصات للحديث الذي دار بين درة ومحب.

لقد بدأت رانسي تشعر بالملل، فالملل يأتي دائمًا من التكرار للأشياء نفسها، ولا شيء سوى التغيير في استطاعته أن يكسر هذا الملل الصاخب، فالملل عدو لدود يحبط كل من يقف مكانه إن لم يسع أن يجرب شيئًا جديدًا.

حاولت رانسي أن تسلك مسلكًا جديدًا، وشرعت تتحدث إلى بارون، وقالت: إن أهلي قريبون من هنا على حدود غرب الجزيرة، إن المسافة ليست بعيدة من هنا، فأنا تركتهم منذ زمن، واتخذت مسكنًا بعيدًا عنهم في أقصى الغرب، لأعيش حياتي بعيدًا عنهم بالشكل الذي أراه مناسبًا لي، فأنا لا أحب القيود، فهم من جيل ونحن من جيل آخر، وفي الحقيقة عندما حدث ما حدث لي طرت متجهة إليهم، لكني كما تعلم قد ضللت الطريق، فأنت تعلم أن لا أحد سوى عائلتك في استطاعته أن يخفف عنك آلامك، وكما رأيت في نهاية المطاف كيف وصل بي الحال إلى هنا...

قاطعها بارون قائلًا: ماذا تريدين بعد هذه المقدمة الطويلة؟

قالت: أريدك أن تأتي معي وتعيش بيننا وسأعرفك إلى أهلي، ولن يستطيع سيدك الذي تخاف منه أن يرانا هناك، أو أن يمسك بك، وأعدك أنه سيتغير لون ريشاتك البنية والسوداء هذه، وتتحول إلى طيف من ألوان شتى، ومن هنا ستتغير حياتك وأفكارك وعاداتك وكل شيء.

قال لها بارون وهو يبتسم: أتريدين أن تجعلي مني بلبلًا آخر؟ إن التغير يأتي من الداخل وليس لخارجنا صلة بذلك، وماذا عن زوجتي وصغاري، أتريدين أن تنزعي من غيرك حقهم؟

قالت رانسي وهي غاضبة: هذا أيضًا حقي وسأنتزعه منك.

قالتها وهي تعلم أن الحب لا يأتي بنزاع أو قتال، ولا يسعى لذلك إلا يائس، فلا بد أن تأخذ الأشياء بالرضا والتسامح والقبول.

ودت رانسي أن لو وهب لها هذا الحب دون عناء، بدلًا من أن يدفعها لارتكاب الحماقات، ويجبرها بأفعاله على فعل أشياء لا ترضيه لتحصل على مرادها منه.

قال بارون ببرود أعصاب لم تشهده من قبل: دعي الوقت يقول كلمته فما زال لدينا مزيد منه، ولا تدفعيني لفعل أشياء ترضيكِ، ثم بعد ذلك لن يندم عليها غيري، لذا لا بد أن تُدرس القرارات جيدًا، فقط أعطيني مهلة من الوقت، فإن عقلي مشتت ولا أستطيع التفكير، وأشعر أني على وشك اتخاذ القرار المناسب.

هدأتها هذه الكلمات بعض الشيء وأخافتها أيضًا، لكنها رفضت أن تظهر ذلك، وأحست أنه على وشك أن يستسلم لأمرها، فشعرت أن عليها الآن أن تضغط عليه أكثر، وأن عليها أن تطرق على الحديد السخن بقوة، لتشكله كيف أرادت، فبدأ يحتد صوتها عليه.

قالت له بصوت مرتفع يملؤه الغضب:

إنك دائمًا تضعني في تلك المنطقة الرمادية، لم أعد أعرف شيئًا، لا أنت الذي ترفضني وتنهرني فأتركك غير آسفة، ولا أنت الذي تضمني إليك وتهب لي ما أتمناه منك، لقد كانت مشاعري نائمة بداخلي، وكنت أوفر لها الهدوء، بل كنت قد أغلقت الباب وأوصدته عليها، فجئت أنت وطرقت الباب بقوة، فأيقظت قلبي وأحييت بداخلي مشاعري الموتى بعد أن دفنتها حية بيدي، فقام من سباته كلُّ شيء بداخلي ليستقبلك، وبعد أن فتحت لك الباب على مصراعيه، ها أنت بعدها تولي وجهك عني، فليس من العدل أن تترك من أحييته بلا مأوى.

أحست من نظرة بارون عندما أومأ بها إلى الأرض، أنه ازداد ضعفًا أمام عاصفة الكلمات التي أطلقتها عليه، فانتهزت الفرصة أن تتمادى فيما أقبلت عليه، واسترسلت بنفس النبرة الحادة وقالت: أي شيء تخاف؟ أتخاف أن يراك أحد معي خارج هذا القفص اللعين، أتخاف أن يتعرف عليك أحد فتهتز صورتك أمامه، تلك الصورة المزيفة التي تحاول أن تجملها، أتخشى أن يقال: وقع الطائر المسكين في الحب؟ وكأن في الحب إهانة لذاتك وتحديًا لغرورك ولكبرك العنيد، أم تريد أن تطمئن نفسك على شهواتك أهي ما زالت تحركها الإناث من حولك؟ لتتأكد أنك لم تمت بعد، أم أنك تتلذذ بأن تثير مشاعري نحوك وتتركني دون أن أصل إلى ذروتي معك؟ فتذيقني من ضعفي عذابًا؟

فتذيقني من الكأس التي طالما شربت منها؟ كي تسألني بعدها كم مؤلمٌ هذا الحب؟ فتسقيني آلامه بدلًا من دوائه، أو أنك تفعل ذلك لتبعدني عنك، لتنام قرير العين دون ضمير يوقظك إن أخطأت في حقي؟!

كان بارون يحاول أن يصرف وجهه عنها وبدا مرتبكًا، وهو يسمع كلماتها التي دوت فوق رأسه كالصاعقة.

وانتهزت رانسي الفرصة وقالت في نفسها:

على الخصم أن يسدد ضربات سريعة ومتتالية إذا وقعت عينه على نقطة ضعف الخصم الذي أمامه، فعندئذ فقط سيستطيع أن يطرحه أرضًا، وينهي الجولة لصالحه.

أحس بارون أنه يحتاج إلى أعوام ليدفع عنه كل هذه التهم، فلقد أحكمت قبضتها عليه، ولم يكن من بارون الضعيف إلا أن قال: لم يبق سوى أن تنصبي لي محكمة وتلقي القبض علي؟

كل ما فعلته رانسي لم يكن سوى فخًّا منها لتدفعه بأن ينطق بهذه الجملة، فقد استدرجته بحرفة، ونسجت خطتها كعنكبوت حاصر فريسته من كل جانب بخيوطه المتشابكة، فكان من الطبيعي أن تؤدي كل النتائج في نهاية الأمر إلى الإمساك به.

فقالت رانسي على عجل: وسأنصبها لك الآن وسأقوم بدور القاضي، وسأنطق بالحكم عليك فور الانتهاء، وعليك أن ترضى بحكمي أيًّا كان.

محكمة

سلم بارون أمره كسجين بائس، وأمسك بجناحيه القضبان ومد رأسه خارجها قليلًا، وتحول القفص إلى زنزانة حقيقية.

خرجت رانسي من القفص ووقفت على فرع لشجرة السدر القريبة من القفص، ثم نظرت إليه وفي عينيها بريق انتقام، واستعدت لتقمص شخصية القاضي، فهذه هي الشخصية الوحيدة التي قد تستطيع أن تخلصها من هذا الصراع السائد بينهما.

وقف أمامها بارون بعينين يملؤهما الحزن، وقال بصوت يعتريه الألم، وما تهمتي يا سيادة القاضي؟

ردت رانسي بقوة قاضٍ متمرس، ظل أعوامًا يمارس سلطته بنفس طقوسه القديمة، بمنهج واحد لا يتغير رغم المتغيرات من حوله، ليلقي بالأحكام جزافًا فوق طيور لا أضعف منها في هذا العالم.

وقالت له: شروع في الحب مع سبق الإصرار والترصد.

ابتسم بارون ابتسامة أليمة عندما أخبرته أن الحب جريمة، ولا جزاء للمحبين غير السجن.

طال صمت بارون وهو يفكر فيما قالت، فنهرته أن يجيبها سريعًا.

فنطق بارون قائلًا: أنا لم أفعل أي جريمة لأوضع في هذا السجن، فما الذنب الذي اقترفته؟

وقفت بعض العصافير على أفرع متفرقة على الشجرة ينصتون للمحاكمة ممن تركهم أهلوهم في رحلتهم للبحث على أرزاقهم، وكانت درة المسكينة التي كانت تعتصر ألمًا قد لفت انتباهها ما شرعا يتحدثان عنه.

قال القاضي المتمثل في شخص رانسي: إن ذنبك أنك تحب ولا تفصح لمحبوبتك عن عشقك لها، فأنت لست حرًّا في مشاعرك لتكتمها وتخفيها عمَّن تحب، فهناك الآن من أصبح شريكًا لك فيها، ومن حقه أن يطلع عليها.

رد بارون عليها قائلًا: لقد كنت صريحًا معها من البداية، كل ما طلبته فقط مزيدًا من الوقت لأتأكد من صدق مشاعري نحوها، ولا أريد أن أتخذ قرارًا وأرجع فيه قبل إتمامه.

كانت رانسي على أتم استعداد أن تنطق بالحكم عليه فالأمر في يدها، وهي الآن صاحبة سلطة، لكن لكي لا تثير الشكوك حول حكمها عليه، عليها أن تكمل تلك المسرحية التي ابتدعتها إلى النهاية.

سألته: أقرارك أنك لا تريد أن تتخذ قرارًا جاء بعد وقوعك في الحب أم قبله؟

ثم استرسلت قائلة قبل أن يجيبها:

إذا كنت ممن يتخذون الحيطة في قرار تتخذه، فهذا يعني أنك درست الأمر جيدًا، قبل أن تقع في حبها، وما بقى عليك سوى أن تصارحها به، وإذا كنت وقعت في حبها فجأة، دون سابق دراسة منك، فهذا دليل أنك لا تهتم بحساباتك للأشياء من قبل، وما تحججك بقراراتك إلا ستارة تحاول أن تختبئ وراءها، وبما أنك لا تكترث لحساباتك من البداية فأنت لست في حاجة إلى مزيد من الوقت كما زعمت، لقد قطعت مسافة طويلة وما بقى لك سوى خطوة واحدة لتصل إلى ما تريد، فلا تظل واقفًا هكذا كالمسكين لترثي حالك لكل من مر عليك.

نظر إليها بارون وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا قال في نفسه:

من أين تعلمت كل هذا؟ وكيف قبلت بنفسي أن أمثل بين يديها وأقر لها بإدانتي؟ وكيف ارتضيت لنفسي أن أنصب من اختلفت

معـه قاضيًـا علـيَّ؟ كان مـن الضـروري أن يكـون هنـاك طرف ثالـث يحكم بيننـا، فذلـك سـيعطي الفرصـة لهـا أن تطـوع العدل كيف شـاءت لنفسـها، فمـن كان فـي يـده الحكـم، حتمًـا سـيحكم لصالحه بـلا تردد.

طال صمت بارون ثانية فقالت له رانسي: ما خطبك؟! تكلم!

فلم يجد على لسانه سوى أن يطلب العفو والصفح منها ويلتمس العدل، وأقر بأنه مخطئ وأنه طائر ضعيف وليس له تجارب، وأن خطاه مقيدة منذ زمن في هذا المكان منذ أن رأت عيناه النور، وكل ما فعله هو أنه نظر واعتبر من خلال مكانه، فما وافق روحه وفطرته، تقبله دون نفور وتعامل معه، وما كان عكس ذلك، ما زال يحاول أن يتقبله، فهو بداخله يتمنى أكثر مما تطلبه، لكن هناك أشياء أكثر من ذلك تمنعه.

فطنـت رانسـي أنـه يحـاول أن يضلـل العدالـة، وأنـه يحـاول أن يسـلبها مشـاعرها بنبـرة الصدق التي تملأ صوتـه، لتقوم بالعفـو عنه لكنها قالـت فـي نفسـها قبـل أن يليـن قلبها لـه: عليَّ أن أكمـل إلى النهايـة، إنها فرصتـي الأخيرة.

مـدت جناحهـا وأخـذت بعضًـا مـن أوراق الشـجرة التـي تتدلـى فوقهـا وأمسـكت بهـا وقالـت هـذه الأوراق تدينـك وتشـهد عليـك، وأنـا شـاهدة أيضًـا عليـك، والقانـون لا يعـرف شـيئًا عـن المشـاعر، فهـو لا يرى ولا يسـمع، وإذا تكلـم فهـو يتكلـم فقـط عندمـا ينطـق بالأحـكام.

عـادت رانسـي وسـألته وقالـت: مـا الـذي يمنعـك أن تقيـم علاقـة معهـا، فهـي ترحـب بذلك تحت أي اسـم، وإذا كان الطرف الـذي تحبه، لن يسـألك ثمنًـا ولـن يكلفك شـيئًا فلمَ لا؟

كانـت هـذه أكثـر الأشـياء التـي تزعجه، لـذا قال في غضب شـديد: أنـا أكـره أن يكـون جسـدي هـو قائـدي، ولن أرضـى بغيـر قلبي قائـدًا في رحلتـي إلى العشـق.

كانـت العصافيـر الصغـار التـي تشـاهد المحاكمـة، تصفـق وتهلـل كلمـا تغلـب أحدهمـا علـى الآخـر، علـى الرغم مـن أنهـا لا تفهم شـيئًا، أما درة فكانـت شـاردة الفكـر، وتدمع حزنًا علـى فراق زوجها الـذي تركها وفر هاربًـا منهـا ولم يشـغلها مـا كان يـدور حولها.

أمرتـه رانسـي أن يـدع قلبـه يقـوده إذًا، وأن لا يـدع عقلـه يسـيطر عليـه، ثـم سـألته فـي غضـب: هـل أنـت طائـر مـن لحـم ودم مثلنـا أم مصنـوع مـن حجـر صلـب؟

ثـم أكملـت بعـد أن أخـذت نفسًـا عميقًا مـلأ صدرها بالهـواء الذي كاد أن ينفـذ بداخلهـا وقالت:

علـى كلٍّ، هـل تظن إذا أحب القلب عليه أن يسـير مع جسـده؟ أم يتركـه، فأنـت تعلـم جيـدًا.. إن انفصـلا فلـن يكون هنـاك حيـاة لأي منهما، فوجودهمـا معًا ضروري؟

أجابها بارون بنعم، وقال إنه على علم بذلك جيدًا، ولكنه كان يريد فقط أن يتبع الجسد ما يأمر به القلب، لا العكس، فكل ما هنالك أنه لا يريد أن تكون لشهواته سلطانًا عليه، فما من طائر سيطرت عليه شهواته إلا وجعلته يلهث خلفها كالمجنون، وأنه إن أطاع شهوته في رانسي اليوم وهو يملك غيرها، فغدًا سيطيع غيرها وهي ملكه، فالجائع يظل جائعًا مهما امتلأت بطنه، بل أحيانًا يزيده الطعام شراهة وفجعًا.

ما زالت رانسي تمسك بزمام الأمور وما زال أيضًا كل خيط من خيوط القضية في يدها، ولن تعطيه الفرصة أن يفلت من يدها هذه المرة.

قالت في هدوء وهي تستعطفه: إن المحكمة ترى أن عليك أن تتزوجها، وبما أن شرع الطير لا يحل ذلك، فنحن نستطيع أن نساعدك في ذلك ونضع لك قانونًا يحل لك التعدد، هذا أمر يسير علينا، بل هذه هي لعبتنا، وعليك أن تضع في الاعتبار أن زواجك سوف يحميها من أن تقع في الرذيلة، أو أن تعود إلى حياتها البائسة مرة أخرى.

رد بارون: يا سيادة القاضي أنا أحب الورد ولكني لا أقتنيه على الرغم من أني مغرم بلونه وعطره وهيئته التي هو عليها، فنحن لا نستطيع أن نمتلك كل شيء نحبه، فالبستان مليء بالورود، فكم من الورد عليَّ أن أقتني؟ وقد اقتنيت الورد يومًا، فجرحني ببعض من شوكه، وها هي بعيدة عني الآن ولعلها تذبل يومًا بعد يوم، وأرى أن

الأفضل أن أترك الورد يحيا على أرضه بدلًا من أن أقطفه لنفسي ويذبل أمامي، سأكتفي بالنظر إليه وشم رائحته، مثل النحل الذي يمر فوق كل الورود فيمتص ما يشتهي من رحيق، دون أن يسبب للوردة إزعاجًا أو ألمًا، ويتركها على قيد الحياة دون أن يأذي جسدها بشيء، فتظل بكرًا إلى الأبد.

قالت رانسي وهي تُعتصر ألمًا: من قال لك أنها بعد أن يمتص رحيقها تظل على قيد الحياة؟ إن عطرها بمثابة روحها، وما فائدة الأجساد إذ انتزعت الروح منها؟

ثم ضحكت ساخرة وقالت بعد أن أشارت إلى نفسها: على كل، ها هي أمامك فلتمتص منها ما طاب لك.

رد سريعًا بارون عليها قبل أن تفهمه خطأ وقال:

قصدت الروح لا الجسد يا سيدي.

لقد جن جنون القاضي وبدأ يخشى أن تتحول القضية لصالح الجاني، فقالت بغيظ شديد: أنت مجادل وتتعمد أن تضيع الوقت، ولا فائدة معك إني أخطأت عندما أعطيتك الحرية أن تتكلم، إن السجن لَأرحم لتلك المخلوقات المعقدة من الحياة بخارجه، إني لأخشى أن تصيب غيرك بهذا المرض الذي يعجز عنه الطب!

ثـم قالـت فـي دهشـة إنـي متعجبـة مـن أمـرك فـإن الحكـم الذي أنـت خائفـه لـن يبقيـك فـي السـجن بـل سـيحررك منـه، وكل مـا يزعجني أنـك مـا زلت تسـعى بمجادلتك أن تفلـت منه، على كلٍّ، لـن نعجل بالأمر، ولـن ألقـي عليـك الحكـم إلا وأنـا متأكدة أنك تسـتحقه.

صمتـت رانسـي لفتـرة وهـي تنظـر إلـى عينيـه ثـم قالت لـه: أنت تعلـم أن الجسـد عندمـا يفنـى، يفنـى القلـب معـه، وكل مـا يتبقـى هـو الـروح فإنهـا الباقيـة بعـد زوال الجميـع، فلـمَ لا تتبـع روحـك؟

رد عليهـا بـارون قائـلًا: إن روحـي عالقة بين السـماء والأرض، أحس أنهـا تقـف علـى جبـل كبيـر، تنتظـر أي قـادم نحوهـا لتحتضنـه، لكنها في الوقت نفسـه مهددة من أي لمسـة أن تسـقط من هذا الارتفاع الشـاهق، وإنـي مـا زلـت أجتهـد أن أجـد مخرجًـا من هـذه المتاهـة، فالظـلام حالك جـدًّا، وأخشـى أن يكـون هـذا النـور، الـذي فـي نهايـة الطريق، نـارًا وليس نـورًا ، فأذهـب إليـه كفراشـة جذبها الضـوء إليه، فألقى مصرعـي، ظنًّا مني أن النجـاة هنـاك حيـث النـور، وكمـا تعلمين ليـس كل ضـوء آتٍ من بعيد فيه أمـان لمبتغانا.

لـم تجـد رانسـي حلًّا سـوى أن تعجل بالحكـم قبل أن يلتـف عليها بصدقـه وبرائتـه وذكائـه، فأمهلتـه دقيقـة فقط، فـي أن يختار بيـن أمرين، إمـا أن، يذهـب معهـا، وإمـا أن تذهـب هي وحدها إلـى الأبد.

سألها: أهذا هو العدل؟

قالـت: هـذا هـو العـدل الـذي نـراه ولا دخـل لـك فـي ذلـك، فالعـدل صنعتنـا.

نظـر إليهـا بـارون وابتسـم وأومأ برأسـه واستسـلم أن يخـرج معها، ليـرى عـن قـرب كيـف تكون تلـك الحيـاة التـي تمجدها.

فرحـت رانسـي بانتصارها الزائف عليـه، وازدادت العصافير الصغار مـن حولهمـا بهجـة وسـرورًا ، واضطـر هـو أيضًـا أن يسـلم لحكمهـا عليـه رغـم مـا كان يحيـك فـي صـدره مـن ألـم، ولكنـه فـي النهايـة أخـذ الأمـور بصـدر رحب.

تقـدم نحـو البـاب فطـارت رانسـي نحـوه ووقفـت أمـام البـاب تنتظـره، أمـا هـو فمـا زال يتقـدم خطوة ويأخـر أخرى، وعندمـا وقف على بـاب القفـص أخـذ نفسًـا عميقًا، وتبسـم كل منهمـا للآخر وانتقـلا من باب القفـص إلـى سـور الشـرفة ومنـه إلى...

الساعة السابعة

أصبحت الشمس في منتصف السماء عمودية فوق الجزيرة، وتشع بوجهها الصبوح دفئًا ونورًا، تبسمت للنهار، فتبسم لها ثم أشارت بطرف عينيها إلى مكان يمتلأ بالطيور على سطح الجزيرة، نظر النهار إلى حيث أشارت، فلمح بعينيه بعض الطيور ممن يقفون تحت الشمس ويتوجهون بأبصارهم إليها، وإذا بعضهم يصيبهم العمى، وآخر يحترق من لهيب الشمس فيسقط ميتًا.

أزعج النهار جدًّا ما قد شاهده من أولئك السذج الذين يقتلون أنفسهم تحت وطئة الشمس، قال النهار محدثًا نفسه: لقد قلت لهم استمدوا النور الذي أرسلته إليكم بأرواحكم لا بأجسادكم، فأنا لم أبعث بالنور لأقتلكم به، بل لأحييكم وأوقظكم به من غفلتكم، ومن موتكم الأصغر، لقد بعثتها به لأضيء لكم الطرقات، فلمَ تركتم ضوءها وعطاءها وتمسحتم فيها؟ تبًا لهؤلاء الذين لا يفهمون رسالتي!

خطرت للنهار فكرة أن يتخفى في شكل طاووس ويهبط إليهم ليحدثهم بنفسه، وبالفعل هبط وصار بينهم.لم ينتبه الطيور حتى وجدوه واقفًا بجوارهم، فوقف بين طائرين أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، ثم بدأ بسؤالهما وقال:

ماذا تفعلون؟ إن الشمس سلاح مضر سيؤذيكم، وإن النهار عندما ناداكم لم يكن يعرف أنكم ستفهمون رسالته على هذا النحو.

تكلم الطائر الذي عن يمينه وقال: أيًّا كان قوله فهذا لا يمنعنا من أن نحب الشمس ونعبدها، ونتقرب إليها بالنظر إلى وجهها الطيب، وإن عميت أبصارنا، فهذا لا يهمنا البتة، لم نعد نتحمل هذا القبح الذي يحيط بنا من كل جانب، وإذا متنا فنحن نموت عشقًا لها، وليس هناك أجمل من أن يموت العاشق في معشوقه، وأنت تعلم أن الليل إذا جاء علينا جعل كل منا يتخبط في الآخر، كما أنه يكتفنا في أعشاشنا كالعجزة، وأحيانًا نكون فريسة ولقمة سائغة في أفواه طيور الليل.

نظر إليه الطاووس بتعجب شديد فأكمل الطائر وسأله قائلًا: ألا تستحق الشمس التي هزمت الضباب أن نفديها بأرواحنا؟

لم يُرد الطاووس أن يجيبه ولاذ بالصمت، ولم يحاول أن يظهر له أيَّ علامة استياء منه، ثم أدار وجهه إلى الذي عن يساره وسأله: وأنت؟

فأجابه قائلًا: نحن ضد الليل، نكره أفعاله ومكْرَهُ، كل يوم يخرج علينا كالشبح ليبث فينا الخوف والرعب، وضوء القمر الذي يأتي به ليس بكافٍ لنا بل ويتغير ويمرض بين الحين والآخر، فكلما اعتادت أبصارنا ضوءًا أتانا في الليلة التي تليها بضوء آخر، ولقد غدر بالشمس أمام أعيننا في الليلة الماضية، عندما جذبها بيده إلى أسفل الجزيرة، إلى مكان لا نعرفه حتى اختفت عن أبصارنا تمامًا، لقد كانت تستغيث بنا فخذلناها بصمتنا، كنا نتمنى أن نجد جثتها لنبني لها ضريحًا يليق

بنورهـا وكمالهـا، لنبكيهـا طيلة أيامنا القادمة، لقد سـمعنا مـن بعض طيور غرب الجزيرة، أن الشـمس في أنفاسـها الأخيرة قالت إنها سترسـل ابنًا بارًّا من أبنائها ليكمل مسـيرة إشـراقها.

ثم استشهد بأن هناك زهرة تتبع خطى الشمس بعيونها منذ ولادتها حتى مماتها وقال إنهم ليسوا أقل قدرًا من هذه الزهرة ليفعلوا مثلها، ثم قال له لو عبدتها معنا لأبدلت قدميك القبيحتين بقدمين جميلتين يليقان بألوانك المبهجة، نظر الطاووس إلى قدميه فدمعت عيناه وحز في نفسه أنه ليس مكتمل الجمال، وأنه لم يأتِ بالصورة التي يستحقها.

مـل الطـاووس مـن حديثهما السـمج، وولّـى بوجهه عنهمـا دون أن يجادلهمـا بكلمـة وذهب حتـى اختفى عـن بصريهما.

وعندمـا عـاد إلـى الشـمس نظـر إليهـا بعينيـه الدامعتيـن ففهمت أنـه تألـم ممـا سـمعه منهـم فقالـت له: أنـا بريئـة مـن أفعالهم.

خطر في بال النهار أن يصب غضبه عليهم، وأن يمحو هؤلاء الحمقى من فوق هذه الأرض الطيبة، لكنه خشي أن يزداد أعدادهم بسبب قتلهم لأنفسهم، ثم عاد وقال لنفسه: إن قتلهم لن يزيد إلا من أعدادهم، وهذا سيجعل الغربان تتكاثر ليوفوا العمل المسند إليهم بحمل جثثهم وإلقائها بالحفر، وإذا تضاعف عدد الغربان سيكون النهار أشبه بقطع من الليل المظلم، وعندها سيكون لا فضل لنهار على ليل، وستتفشى الأوبئة في الجزيرة بأكملها وستأكل نار الغضب الأخضر واليابس.

عـدل النهـار فـي نهايـة الأمـر عـن هـذه الفكـرة، ورجـح أن يتـرك الجزيـرة علـى حالهـا، وقـال والغيـظ مـازال يمـلأ صـدره: قليـل مـن الجهـلاء لـن يضـر بشـيء، أمـا كثيـر مـن الموتـى ففيـه دمـار لـكل شـيء.

وقـف بـارون ورانسـي فـوق سـور الشـرفة لينتقـلا منـه إلـى الهـواء الطلـق وإلـى الحيـاة التـي هـو بصددهـا، لكـن بـارون ظل متـرددًا بعـض الشـيء فـي أن يغـادر مكانـه، شـجعته رانسـي بـأن يفـرد جناحيـه، ويلقـي بنفسـه دون خـوف ووعدتـه بـأن الهـواء سـيحمله، وحثّتـه أن عليـه أن يجـرب روح المغامـرة، وقالـت لـه: مـن لا يجعـل للمـوت قيمـة فـي عينيـه، سـوف تأتيـه الحيـاة مرغمـة، وأن شـعورك بالخـوف سـينتهي، عندمـا تسـلك طريقًـا يقطـن فيـه المـوت، هيـا لنتنفـس الحيـاة معًـا، فليـس لدينـا عمـرٌ كافٍ لنضيعـه.

مـا زال بـارون متـرددًا وخائفًـا ينظـر تـارة أسـفل قدميـه وتـارة خلفـه، كان يخشـى أن يسـقط مـن هـذا الارتفـاع الشـاهق فـي عينيـه، وكان حزينًـا علـى بيتـه الـذي أرغـم علـى تركـه، ثـم تخيـل نفسـه أنـه فرد جناحيـه وصـارع الهـواء ثـم وصـل بـه الحـال أن سـقط أرضًـا، أخـذ نفسًـا عميقًـا، وظـل صامتًـا لفتـرة، لكـن رانسـي لـم تنتظـر طويـلًا فقـررت أن تدفـع بـه مـرة أخـرى، فهنـاك مـن الطيـر مَـن هـم فـي حاجـة دائمـة إلـى مـن يدفـع بهـم، وإلا ظلـوا علـى حالتهـم حتـى المـوت.

حـاول بـارون أن يتمسـك برانسـي بعـد أن دفعتـه، لكنهـا ابتعدت عنـه، فهبـط قليـلًا إلـى أسـفل وبـدأ يحـرك جناحيـه سـريعًا بطريقـة غيـر منتظمـة وعشـوائية حتـى اسـتقر فـي الهـواء بعـد أن تـوازن جسـده.

ضحكـت رانسـي علـى حالتـه التـي يرثى لهـا، ودعا هـو عليها على هـذه الفعلـة التي كادت تـودي بحياته.

بـدأ بـارون يتمايـل يمينًـا ويسـارًا، دون تحريـك جناحيـه، ثـم وجد الهـواء يحملـه كريشـة تتأرجـح فـي هـذا الفضـاء الواسـع، وكان الأكثر منه سـعادة هـي رانسـي التـي حققـت شـيئًا ممـا جاءت مـن أجله.

كان الهـواء يداعـب بـارون كمداعبـة أنثى غـاب عنهـا ذكرها لمدة طويلـة، شـعر كأنـه لأول مـرة يتنفس هواء نقيًّا، كانت الأشـجار أسـفل منه متلاحمـة ومتحـدة معًـا على رغم اختـلاف أنواعها، ورأى تدفـق الأنهار من حولهـا، ورأى مـن سـحر الطبيعـة ما قـد فاق ما سـمعه عنها.

ارتفع أكثر بجناحيه وكأنه يريد أن يلمس السماء بجناحيه، ليضع قبلة على جبين الشمس، كان ينظر إلى الشمس ويفتح عينيه فيها ويعانقها بروحه، ويسألها في خشوع أن تذيب الثلج المتراكم في صدره.

شـكر بـارون رانسـي على أنهـا دفعت به إلـى الحيـاة، وأن أخرجته مـن هـذا السـجن المظلـم، ظـلا يلعبـان ويموجـان فـي الهـواء، يـدوران ويتمتعـان باللحظـة التـي يعيشـانها غيـر متجهيـن إلـى مـكان بعينه.

نصحته رانسي بعد أن طار لفترة أن هذا يكفي، فهو مازال حديث عهد بالطيران، فخافت أن تجهده هذه المسافة بعد أن كان يتنقل في مكانه الضيق، لكنه لم يكن يشعر بأي تعب، وتمنى ألّا يهبط بعد أن ارتفع إلى هذا القدر.

وقال في نفسه: من هذا الغبي الذي يترك نقاء وصفاء السماء ويهبط إلى مستنقع مثل الأرض؟!

وبينما هما منهمكان في الطيران إذا غمامة تمر أمام الشمس، فحجبت بعضًا من ضوئها الساطع عليهما، ظنا لوهلة أنها سحابة عابرة، ولكن الشمس لم تدع فرصة مثل هذه لتفوتها حتى تظهر قوتها فيها، وتحولها بضربة ضوء إلى حبيبات مطر.

أحست رانسي بأن المعركة على وشك البدء فأمرت بارون أن يسرع في الهبوط على أقرب شجرة منهما، خشية هطول المطر عليهما.

لكن بارون كان مستمتعًا بالطيران فلم يرد أن يطاوعها، بل تمنى أن يهطل المطر عليه.

تبسمت رانسي وتذكرت كم كان يخاف منذ ساعات قليلة، ثم قالت له: لقد دفعتك لكي لا تخاف لكني لم أدفعك لتلقي بنفسك إلى التهلكة، فنحن أضعف من أن نتحمل زخة مطر واحدة.

هبط بارون معها بعد أن بدأ المطر يتساقط عليه ويثقل أجنحته، فهبطا على شجرة توت كانت هي الأقرب لهما، ووقفا على فرع بداخلها وجعلا من أوراقها مظلة لرأسيهما، لتحميهما من مطر تلك السحابة العابرة، كان التوت يتدلى أمام أعينهم كالعناقيد في ألوانه الأحمر والأبيض والأسود، وانساب المطر فوق الأوراق وبدأ يتنقل من ورقة إلى أخرى، في منظر بديع، فتح كل منهما فمه ليلتقط حبات من الماء العذب الذي أتى من نبع السماء مباشرة.

تمنى بارون ألّا تنتهي هذه الأجواء، وتمنى أن لو كان العالم كله شتاء.

التقطت رانسي حبة توت حمراء كانت قريبة إلى فمها، ووضعتها في فمه على حين غفلة منه، كانت هذه هي المرة الأولى التي يتذوق فيها طعم التوت، ويلمس فمها بفمه، تنهدت رانسي بعد أن أطعمته وعرضت عليه أن يقبلها في هذه الأجواء وقالت له وهي تبتسم إن قبلة واحدة لن تضر، رد عليها بارون إن الضرر كله دائمًا ما يأتي بعد القبلة الأولى.

لم يتردد بارون في تقبيلها في صمت، ثم ثمل بعدها، وأحس كأنها سقته خمرًا، ولم يدر كيف بقبلة أن تسكره.

حـاول بـارون أن يسـترخي بعدهـا ويلتقـط أنفاسـه، ويهـدئ مـن دقـات قلبـه المتسـارع نبضهـا، وأحـس برعشـة طفيفـة فـي جسـده، لـم يسـتطع أن يسـيطر عليهـا، وكأن مفعـول القبلـة بـدأ العمـل بعـد نجـاح التجربـة الأولـى.

حـاول أن يتهـرب بـارون مـن هـذا الشـعور الغريـب الـذي اعتراه، ثـم قـال بعـد أن أخذ نفسًـا عميقًـا: لا أدري كيف تبدلت حـال الأجواء في الجزيـرة من شـمس مشـرقة، إلـى كل هـذه الأمطـار الغزيرة!

نظـرت رانسـي إلـى عينيـه التـي كان يحـاول أن لا ينظر بهمـا إليها وقالـت لـه: لـمَ تحـاول أن تغيـر مـا قـد أقبلنـا عليـه. ثـم طلبت منـه قبلة أخـرى، لـم يتـردد بـارون فـي أن يلبيهـا، وعندمـا هـم للمـرة الثانيـة بـأن يقبلهـا، إذ بريـح تهـب فجـأة عليهمـا، لتسـتعرض قوتهـا عليهمـا.

تمسـك بارون ورانسـي بقوة في فرع الشـجرة، وأغمـض كل منهما عينيـه خوفًـا مـن الأتربـة التـي كانـت تحملهـا الريـح معهـا، وتشـبث كل منهمـا بالآخـر وسـألت رانسـي: فـي دهشـة لـمَ كل هـذه التقلبات؟

كان بارون يضحك مستعجبًا في سره وكأنه يعرف السبب.

بعـد فتـرة قليلـة هـدأت الأجـواء وعـاد الوضـع كمـا كان عليـه وتوقـف المطـر وعـادت الشـمس تسـطع مـن جديـد.

فتحت رانسي عيناها ثم نفضت الأتربة عن ريشها الملون، الذي اتسخ قليلًا، أما بارون فبسبب ألوانه القاتمة لم تظهر الأتربة فوق ريشه.

كان بارون لا يكف عن الضحك فدفعها الفضول أن تسأله فأجابها إنها إشارة ترحيب بي ليس إلا، ولا تحاولي أن تقنعيني بغير ذلك أو تقوليـن إنها مجرد صدفة.

أجابته رانسي وهي تسخر منه وقالت: أتريد أن تخبرني أن الكون تبدل حاله كله بسبب خروجك من قفصك؟ من تظن حالك ليحدث معك هذا الأمر؟

و استرسلت موضحة له الأمر على طريقتها وقالت:

إنها مجرد عوامل طبيعية وتحدث بين الحين والآخر، على دون موعد أو سابقة إنذار، لا علاقة لها بك، كل ما هنالك أن وقتها وافق لحظة خروجك مما جعلك تربط بين الحدثين، وبك وبغيرك كانت ستحدث، ولا تحاول أن تقنعني بأن وجودك في الفضاء لدقائق معدودة هو من أحدث هذه الجلبة وغير مسار الطبيعة، وسترى بنفسك في المرات القادمة التي تعاود فيها الطيران ألّا شيء من ذلك سوف يحدث.

كانت رانسي تتحدث وعينا بارون شاخصة على شيء ما، قطعت رانسي حديثها إليه عندما رأت أن هناك شيئًا يشغله وكأنها تتحدث لنفسها، فسألته إلامَ تنظر؟

أشار وأمرها أن تنظر إلى أعلى الشجرة فهناك ورقة برتقالية اللون.

فسألته وماذا يعني ذلك؟ قال لها إن لك ريشة أسفل جناحك الأيمن بنفس اللون، ورغم أن الورقة أصابها الجفاف فلم تسقط من الريح الذي مر فوقها.

قالت له رانسي ملاحظة جيدة منك.

ثم التفتت يمينًا ويسارًا تبحث عن شيء ما قد يشبهه أو ينتمي إليه، ولما لم تجد شيئًا قالت له عسى أن أجيد اللعبة يومًا ما.

في حين أنه كان على الشجرة ورقة أخرى وحيدة تشبه ريشة في أسفل ساقه اليمنى، وتعمد أن لا يخبرها بها خوفًا، من أن تتمسك بها كإشارة إلى صفها.

وبينما هما يتحدثان إذا صوت عصفور يبكي، أنصت كل منهما وتسألا: من أين يأتي هذا الصوت؟

طـار كل منهمـا يحلق حول الشـجرة باحثًا عـن ذاك العصفور الذي يصـرخ، وقعـت عيـن بـارون عليـه أسـفل الشـجرة التـي سـقط مـن عـش عليهـا، فنـادى رانسـي، وعندمـا رأتـه نظـرت فوقـه مباشـرة فعلمـت أنـه سـقط مـن هـذا العـش، سـألت رانسـي بـارون أن يسـاعدها فـي حملـه، فحملاه معًـا وأعـاداه إلـى عشـه، ولكـن الصغيـر لـم يكـف عـن الصـراخ، وكان فـي العـش لـه إخوة آخرون يفتحـون أفواههم من شـدة الجوع، تأثر بهـم بـارون عندمـا شـاهدهم، وبالأخص هـذا الصغير الذي وقـع من هذه المسـافة، فلـولا خفـة جسـده لتضـرر أكثـر عند سـقوطه.

وقالـت رانسـي: أيـن الأبـوان؟ وكيـف يتـركان صغارهمـا وحدهـم؟ وهـم لـم يتجـاوزوا مـن العمـر سـوى يوميـن، تحت وطـأة المطـر والريح، كيـف يذهبـان ويتخليـان عنهـم وهـم فـي أشـد الحاجـة إليهما؟

لـم يجبهـا بـارون وتذكـر صغـاره، وشـعر كأن رانسـي توجـه كلامها إليـه دون قصـد منهـا، استرسـلت رانسـي وقالـت: لا تقـف هكـذا اذهـب وأحضـر لهـم، أي شـيء ليسـد جوعهـم ويهـدئ مـن ألمهـم وأنـا سـأقوم بتدفئتهـم.

فتسـاءل بـارون مـاذا لـو أطعمناهـم مـن هـذا التـوت فالشـجرة ممتلئـة بـه؟

ضحكت رانسي وقالت: إنه للكبار فقط.

بارون لم يكن يعرف من أين يأتي بالطعام، فلم يكن يومًا يشغله هذا الأمر حين كان في قفصه فلطالما كان الطعام موجودًا بوفرة.

فسأل رانسي: من أين؟ فأجابته: إن الأرض واسعة فقط قدّم السعي وستجد الرزق.

ذهب بارون يبحث لهم عن شيء وظلت رانسي بجوار الصغار، تظللهم بأجنحتها وتهدئهم.

طار بارون حول الشجرة، وحدث نفسه ساخرًا من حاله الذي وصل إليه وقال: كم هو مضحك أن أترك صغاري جوعى وأسعى لإطعام صغار غيري. ثم لمح بعينيه عددًا من الديدان بجاور جذع الشجرة، كان يعلم أنه طعام الصغار المفضل، لكن نفسه لم تطاوعه أن يقتل حيًّا ليحيي به حيًّا آخر.

كانت رانسي تتابعه ببصرها فوجدته واقفًا أمام الديدان ولا يتحرك، فقالت له: هيا تحرك فالصغار يموتون جوعًا.

كان مستاءً جدًّا من أن يفعلها، فالسلام الذي بداخله كان يمنعه أن يأذي مخلوقًا مثله، ولكنه اضطر في نهاية الأمر.

صعد لرانسي والدودة في فمه ما زالت تتحرك وتتلوى ألمًا من طبْقة فمه عليها، حاول أن يطعم الصغار بها ولكنه فشل، كان لا يملك الخبرة الكافية في هذه الأمور، ضحكت رانسي ثم أخذتها منه ثم وضعتها تحت قدمها ومزقتها بمنقارها، وبدأت تطعمهم واحدًا تلو الآخر حتى هدؤوا جميعًا.

قالت رانسي لبارون وهي تفتخر بنفسها: أنتم معشر الذكور لا تصلحون لشيء، لذا الصغار يحبون أمهاتهم أكثر منكم، مما يجدونه من عطفهنَّ عليهم.

- لست على حق فكل منا يقوم بدوره، نحن نسعى ونجمع الطعام، وأنتم تقومون بإطعامهم، ولكن الصغار لا يعلمون شيئًا عن ذلك فمنذ أن خرجوا من بيضهم، وأنتم لا تخبرونهم بفضلنا عليهم، فيظنون أنكنَّ كل شيء وتتعلق قلوبهم دون وعي منهم، ولو تبادلنا الأدوار لأحبونا عنكن، هذا كل ما في الأمر.

جاء الأبوان ولا يحملان لصغارهم أيَّ طعام معهم فألقيا السلام عليهم، وأسرعت العصفورة الأم في تفقد صغارها، فوجدتهم نائمين مطمئنين. ألقت رانسي باللوم عليهما وقالت لهما: كيف تتركان صغاركما جوعى، وعرضة للمخاطر كان يكفي أن يذهب أحدكما ويظل الآخر بجوارهم.

قال العصفور الأب المنهك ببعض من الأسى الذي يحمله فوق جبينه: تعلمون أن الجزيرة أصابها القحط بعض الشيء ولم يعد الطعام موجود بوفرة مثل ما كان من قبل، وكبار الطيور لم يتركوا لصغارها شيئًا وطيلة اليوم ونحن نبحث عن أي شيء نقدمه لهم.

وقالت العصفورة الأم التي ذهبت مع زوجها لتساعده في جمع الطعام الذي لم يحصلا على أي شيء منه: إن تركت زوجي يذهب وحده فعليه إذًا أن يطعمني أنا أيضًا معهم، وهذا سيكلفه كثيرًا من المشقة والتعب، لذا أحاول أن أشاركه طيلة اليوم حتى لو لم نأتِ بشيء كل ما أفعله هو أني أحاول أن أخفف العبء عنه، فإن خف عمله، فلن يأتيني منهكًا في آخر الليل، لكي أحصل على بعض من دفئه لي، ويكفيني أن أكون بجواره ولو مت جوعًا.

نظر بارون ورانسي كل منهما إلى الآخر، وتعجبا من هذه العصفورة المليئة بالحب لزوجها.

ثم استرسلت الأم العصفورة قائلة: إن الحاجة هي من أجبرتنا على ذلك، فلو أن هناك من يرعانا أنا وصغاري وزوجي، ولو وضعنا في قفص واحد، مقابل أن يطعمنا ما ترددنا، بل سنعده أننا سنغني له أعذب الألحان، طيلة اليوم، ولا تقولوا لي إن للحرية ثمنًا، فما ندفعه كل يوم أكثر مما نجنيه منها.

غضبت رانسي من سماع تلك الحماقات التي تفوهت بها، واستاءت أنها وجدت على الجزيرة من يفكر بمثل طريقة بارون، وقالت تسألها في غضب، أتفضلين العيش خلف القضبان من أجل الطعام والشراب؟ فأنتم تعلمون أنه لو تخلت عنكم هذه الأيدي التي تطعمكم يومًا ما فسوف تموتون جميعًا.

ردت العصفورة الأم عليها بهدوء وقالت: لا أحد يستطيع منا أن يفر من الموت، وإن كنا نعيش حياتنا في ترف ورغد، أو في قحط وفقر، فهذا لن يؤخر أو يقدم من موعده، ولئن نموت جميعًا خيرٌ من أن نموت فرادى، فيتألم كل منا عند موت الآخر، ولا ضير في أن نموت جوعى، ولكن المصيبة أن نعيش جوعى.

نظر بارون إلى رانسي بعد أن أعجب بكلمات الأم المسكينة وقال: لقد قالت بعض ما أريد أن أقوله.

فأجابته رانسي سريعًا قائلة: إن تشابه وجهات النظر بينكما، لا يعني أنكما على صواب ولا يعطيكما الحق في فرضها على الآخر.

شعرت رانسي ببعض الأسى مما سمعته وشعرت أنها هي الغريبة بينهم وليسوا هم.

وجد كل من بارون ورانسي أنه من الأفضل ألا يتحدثان أمام غريبين، في أمور تخصهما.

أستأذناهما في الذهاب، فأذنا لهما، وأحس الأب بحرج شديد، أنه لم يكن يملك شيئًا ليقدمه إليهما، وقرأ بارون هذا في عينيه دون أن يقوله.

ثم همس بارون في أذنيه وقال له، إن الطعام موجود بوفرة تحت الشجرة التي تعيشان عليها، انظرا بجانبكما وحولكما جيدًا قبل أن تقطعا المسافات للحصول على أشياء في حوذتكما.

شكرهما الأبوان وودعاهما، وتمنيا لهما الخير والسعادة، ولفت انتباههما وتساءلا كيف لذكر رمادي أسود يرافق عصفورة ملونة على هذا القدر من الجمال؟

فكانت هذه هي أول مرة لهما يشهدان فيها مثل ذلك في الجزيرة، فعادة كل طائر لا ينسجم إلا مع طائر من نفس الفصيل الذي يشبهه في الشكل والنوع، وقال العصفور الأب: لا بد أن وراءهما قصة ما؟

هكذا اختتم الأب والأم حديثهما بعد أن ودعاهما.

طار بارون ورانسي في الاتجاه الغربي للجزيرة، بعد أن وافقها بارون أن يذهب معها لمقابلة أهلها، أصبح بارون يجد سعادته ولذته في الطيران، وارتسمت على وجهه الطفولي ابتسامات مشرقة.

وبينما بارون ورانسي يتسابقان في الفضاء، ويلعبان، فيسبقها مرة وتسبقه هي مرة، إذا الصقر الذي هجم عليهما في القفص صباحًا، يطير خلفهما.

فلقد لمحته رانسي وهي تلتفت إلى بارون عندما كانت تتحدث إليه، فصرخت وحذرته على الفور وكان على مد بصرهما التل الأبيض، وكان به بعض الشقوق وأبواب مغارات مفتحة، فأسرعا متجهين إليه، وقال لرانسي: إنها فرصتنا الوحيدة لنختبئ منه، وإلا أصبحنا أسيرين في قبضته.

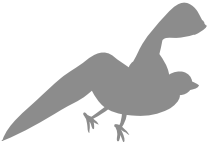

الساعة الثامنة

وقف النهار على مغارة التل الأبيض وأسدل نوره حولها وحاول جاهدًا أن يتسلل بنوره إلى داخلها، لكنه لم يستطع فما زالت قوته محدودة وليست من خصائصه أن يخترق الحواجز والسدود، وإن كانت مفتوحة الأبواب.

أحس النهار بالعجز وشعر بقلة الحيلة، وعلم أنه لن يستطيع أن يصل بنوره إلى من اختبأ منه.

ثم سمع صوتًا قادمًا من داخل المغارة فأنصت له، كانت المغارة وكرًا للبوم والخفافيش وغربان الليل.

فسمع الخفاش الأكبر وهو يحدث من معه ويقول لهم: إلى متى سيظل النهار قائمًا في الخارج، فلقد سئمنا هذا النور الذي يحيط بنا من كل جانب؟! إنه يمنعنا أن نعيش حياتنا بحرية لنصف يوم، وتساءل قائلًا:

ماذا لو أصبحت الجزيرة كلها ليلًا، لقد أصبحنا لا نجد الطعام بوفرة وطيور النهار لم يتركوا شيئًا لنا، بل وأعدادهم في تزايد، وإن لم نفعل شيئًا سيلتهموننا يومًا ما.

تكلمت البومة وأكملت ما شرع الخفاش الأكبر يقوله، وقالت: إن صدورنا تمتلئ كرهًا لهذا النهار البغيض، فإلى متى سيظل الليل

متهاونًا معه إلى هذا الحد؟! أتمنى أن ينقض عليه الليلُ فجأة ويخلصنا منه إلى الأبد، فنحن طيور لا نستطيع أن نبصر في النور، والشيء الذي ليس لنا فيه منفعة، فما حاجتنا إليه، إن النهار يجعلنا نختبئ منه كالجبناء في شقوق الجبال، وإن على أولئك الحمقى من الطيور الضعاف الذين يمرحون ويلعبون في وضح النهار دون خوف وينامون مطمئنين في الأماكن التي اختاروها لأنفسهم، فهم من عليهم أن يعيشوا بكل ذل ومهانة، بما أن ذلك يتواءم مع إمكانياتهم المحدودة، وانظروا إلى أحجامنا إنها أضعاف أحجامهم فنحن أقوى منهم عشرات المرات.

فمن الآن علينا أن نكثف الهجمات على أعشاشهم وهم نائمون لنقتلهم جميعًا، حتى مَن لا حاجة لنا به.

استوقفهم غراب الليل، وقال:

ليس من الحكمة أن نفعل ذلك، إن أعدادهم الكبيرة جدًّا إذا اتحدت معًا، قادرة على أن تقضي علينا بين ليلة وضحاها، وإذا قمنا بقتلهم جميعًا لن نجد شيئًا بعد ذلك نأكله عندما لا يبقى على الجزيرة منهم أحد.

وحينئذٍ لن يكون لنا خيار سوى أن نأكل بعضنا بعضًا، فإن فناءنا ووجودنا مرهونان بهم، ويكفينا أن نقتل منهم فقط على قدر حاجتنا، بل علينا جميعًا أن ندعو لهم بالتكاثر، فكلما ازداد عددهم،

استطعنا أن نؤمن مستقبل أجيالنا القادمة ليستطيعوا أن يمارسوا طقوس القتل التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.

وتذكروا دائمًا أن القوى في حاجة إلى ضعيف ليظهر قوته عليه.

تمنى النهار بعد أن سمع ما دار بينهم، أن يمد نوره إليهم فجأة، فيعمي أبصارهم، بل تمنى لو يستطيع أن يأتي بالشمس ويلقيها بداخل المغارة فيحترقون جميعًا، لكنه عدل عن هذا الأمر لأنه يعلم أن الشمس لو تحركت من مكانها لأظلمت الجزيرة كلها وهذا ما يسعون إليه ويتمنونه، ثم قال قبل أن يعود إلى مكانه:

لا ضير أن يكون على الأرض قليل من الشر، إذا كان هذا سيمنع عنها شرًّا أكبر.

ما زال بارون ورانسي يتجهان بسرعة كبيرة نحو هذا الباب الصغير في التل الأبيض وما زال الصقر خلفهما كأن ثأرًا بينهما، دخلت رانسي ثم بارون إلى باب المغارة التي في التل، قبل أن يمسك بهما، ووقف الصقر، على باب المغارة ومد ببصره الحاد بداخلها لكنه لم يكن يبصر في الظلام، وخشي أن يتقدم خطوة إلى الداخل، ثم غير رأيه وقرر في نفسه أنه لن يقوم بمطاردتهما لاحقًا، لأنه لن يحتمل هزيمته للمرة الثالثة.

ثم أقنع نفسه ليحافظ على ما تبقى من كبريائه وقال:

ليس لي نصيب في هذا الصيد.

كان بارون ورانسي يسندان بظهريهما إلى حائط بداخل المغارة وهما يلتقطان أنفاسهما بصعوبة بالغة فقد ضاعفا من سرعتهما لكي لا يلحق بهما هذا الصقر المتوحش، كانت المغارة بداخل التل الأبيض مظلمة سوى المنطقة القريبة من الباب فكان هناك قليل من انكسار الضوء عليها، يُضيؤها قليلًا، ظلا خائفين من الصقر أن يستفرد بهما ويأتي وراءهما في الداخل، فعندئذٍ لن يكون هناك مفر منه، لكنهما هدآ عندما رأياه تراجع عنهما وذهب إلى حال سبيله.

وظلا خائفين أن يكون مختبئًا لهما في مكان ما بالخارج، ثم قالت رانسي لبارون:

علينا أن نهدأ قليلًا حتى نطمئن أنه لا ينتظرنا بالخارج، نظر كل منهما إلى الآخر ثم ضحكا، بصوت عالٍ، وقال لها بارون:

أظن أن الجزيرة تحتفل بي على طريقتها الخاصة.

لم تجد رانسي ردًّا يقنعه بأن وجهة نظره خطأ، لكنها لم تحاول أن تظهر ذلك له، فتبسمت بعدها وقالت: يحدث أحيانًا.

وجدت رانسي أن المكان مناسب جدًّا لتقترب منه وتقبله لتهون عليه هذه المشقة التي تعرض لها من بداية اليوم، استسلم بارون لها فانهالت عليه بالقبل، ثم توقفت فجأة، فنظر إليها بارون وسألها ماذا هنالك، فأشارت إليه دون كلامٍ أن ينظر خلفه.

التفت بارون، ووجد في هذا الظلام الحالك أن هناك عيونًا تبرق بداخل المغارة، فأسرعا وفرّا منها قبل أن تقترب منهما البوم والخفافيش التي كانت تسكنها.

خرجا من المغارة خائفين مما فيها ومتوجسين خيفة أيضًا من أن يكون الصقر ما زال متربصًا لهما في الخارج، أصبحا مثل الذي يهرب من الموت فيصطدم به.

ثم سلكا طريقهما عندما اطمأنا إلى أن الصقر قد رحل عنهما، فشرعا يذهبان إلى حدود الجزيرة من الجهة الغربية لمقابلة أهل رانسي كما وعدها من قبل.

طارا مسافة ليست بالقليلة، ثم هبطا ليستريحا قليلًا، على أقرب شجرة كانت أمامهما، بعد أن أتعبهم الطيران.

و بعد أن وقف واستقرت أقدامهما على فروع الشجرة قال بارون لرانسي:

أظـن أننـا ليـس مقدر لنا أن نكـون معًا، إني أشـعر أن كل من على الجزيـرة يعادينا، دون أي ذنـب نقترفه في حقهم.

ردت رانسي عليه وقالت:

لـو تعلـم فضـل أعدائك عليـك لتمنيت أن يـزداد عددهم، فمن في اسـتطاعته العيـش فقـط علـى هذه الجزيـرة، هو من يسـتطيع أن يتعايش مع أعدائه.

وقـد يكـون كل من تخـاف منهم اليوم من هـؤلاء الذين يهاجمونك بشراسـة، فـي اسـتطاعتك أن تتغلـب عليهـم فـي الغـد، وإن كل مـا تحتاج إليـه هـو أن تشـعل النـار في صـدرك، لتضيء لـك طريق النصـر عليهم.

لـم يقتنـع بارون بما قالته ففكرة السـلام راسـخة بداخلـه، ولا يريد سـوى أن يعيـش طائـرًا صالحًـا لا يريـد أن يتسـبب فـي إيـذاء أحـد ممـن حولـه أو أن يكـون سـببًا فـي ألـم أحـد آخـر، وتمنـى عندمـا يأتـي موعده ليتـرك هـذه الجزيـرة، أن يتذكـره كل مـن قابلهـم بـكل خير.

كانـت رانسـي تعلـم كل ذلـك جيـدًا حتـى مـن قبـل أن يوضحـه لهـا ومـا دفعهـا لذلـك سـوى أنها تريـد أن يتغيـر وينظـر إلى الحيـاة نظرة جديدة.

وقعت عين بارون في أثناء حديثهما على عش أسفل الفرع الذي يقفان عليه، وشد انتباهه أن فيه فرخين صغيرين عاريين الجسد، وبجوارهما ثلاث بيضات لم يفقسن بعد، كان الفرخان ما زالت أعينهما لم تفتح بعد، فأشار بارون إلى رانسي أن تنظر إليهما، فنظرت معه، وإذا الصغيران يقومان بحمل البيض على ظهريهما ويلقون به إلى خارج العش، فتساءل بارون عن اسم الطائر فأخبرته أنه ابن طائر الوقواق، وقالت إن هذه هي عادتهم فلا تحاول أن تتدخل في الأمر، لأنك لن تستطيع أن تمنع شيئًا وجب حدوثه.

سقط البيض الذي ألقاه الصغيران في نهر كان يمر أسفل الشجرة التي هما عليها، وبعد أن انتهيا بدأ كل منهما يصارع الآخر، وتحول العش إلى حلبة مصارعة، قام كل منهما بطرح الآخر أرضًا عدة مرات، ثم قام أحدهما بحمل الآخر على ظهره وألقى به خارج العش، فوقع في النهر وغطس بالماء ثم اختفى، ولكن البيض كان لا يزال يطفو فوق الماء.

بدأ العصفور الفائز في المعركة يهدأ في عشه بعد أن تأكد أن لا شريك له فيه، مع أن العش كان به متسعٌ لهما جميعًا وقادرًا على أن يسعهما لكن هذا العصفور لا يقبل بشريكٍ له في حياته منذ اليوم الأول، ولو كان هذا الشريك أخاه.

فتح صغير الوقواق فمه يبحث عن من يطعمه، فلقد بذل مجهودًا كبيرًا للإطاحة بكل من حوله، ليبقى هو وحده فقط.

تعجب بارون مما رآه، وقال إنه إن لم يرَ ذلك بنفسه لم يكن ليصدقه، واستغرب أن على هذه الجزيرة تحدث مثل هذه الجرائم التي لا أحد يحاسب عليها، وصاح قائلًا: كيف لأخين من أب واحد وأم واحدة، أن يقتتلا دون سبب ما، ففي أي عالم نعيش؟

هدأ بارون عندما جاءت الأم المسكينة إلى العش وظن أن أول ما ستقوم به هو تأديبه على جريمته في حق إخوته، الذين حرموا الحياة على يد هذا القاتل، لكن الأم لما رأت وليدها الصغير فرحت به، بل نسيت أنها كان لها عدد آخر من الأبناء، فلم تبكِ على ما ذهب واكتفت به، أو لعلها رأت أن الحي أبقى من الميت.

احتضنت الأم وليدها بقوة وأطعمته قليلًا مما كانت تحمل في فمها، استغرب بارون، من فيض هذا الحنان الذي تحمله هذه الأم لصغيرها المجرم، اقترح بارون على رانسي أن يذهب ويخبر الأم ليوضح لها أن هذا الابن شر لها، فمن يقتل في هذا العمر، ماذا عساه أن يفعل عندما يشتد عوده وينبت ريشه.

ماكان من رانسي إلا أنها ابتسمت عندما رأت هذا الغضب الذي يطل من عينيه، فزادته ابتسامتها غضبًا، وعندما همَّ بسؤالها، أجابته وقالت:

لا تلـق باللـوم علـى هـذا الأخ الـذي قتـل أخـاه فلـو تمكـن منـه أخـوه لقتلـه، وللعلـم هـذه التـي معـه ليسـت بأمـه، لأن هـذا الصغير ابن طائـر الوقـواق، وأمـه عندمـا وضعـت بيضهـا، وضعتـه فـي عش هـذه الأم المسـكينه وخلطتهـم ببيضهـا.

و أن هـذه التـي معـه الآن هـي زوجـة طائـر القصب، فالمسـكينة زوجـة طائـر القصـب لا تميز بين بيضهـا وبيض الغربـاء، لأن طائر الوقواق لا يَبنـي لـه عشًّـا، والأم تـرى أنه يكفي أنهـا حملت به ووضعتـه، وتفضلت عليـه بأنهـا لـم تتركـه بـلا مـأوى، فأمنـت لـه عشًّـا، وأمًـا وأبًـا حنونيـن سـيطعمانه حتـى يشـتد عوده.

قاطعهـا بـارون وقـال: بـل قولـى مغفليـن، فسـيربيانه ويطعمانـه مجانًـا، وبهـذه الطريقـة تكـون الأم لم تتعب في شـيء، فهي التـي لم تبنِ عشًـا، ولـم ترقـد كالعاجـزة علـى البيض حتـى يفقس، مـن أجل أبنـاء تملأ قلوبهـم القسـوة، ويسـري فـي دمائهـم القتـل، ونعـم الأمومـة. قالهـا وهو يسخر .

قالـت رانسـي: مـاذا تريـد مـن أنثـى طائـر الوقـواق أن تفعـل، أتريدهـا أن تطعمهـم طـوال اليـوم؟ ألا يكفيهـا تحمـل مسـؤولية نفسـها، وهـل تظـن أن هـؤلاء الصغـار سـيطعمونها عندمـا يصيبهـا الكبَـر أو هـل سـيهتم أحـد بهـا؟ أو هـل سـيكلف أحـد مـن الأبناء نفسـه بالسـؤال عنها؟

تذكر بارون أمه وأباه الطيبين اللذين غابا عنه منذ أن كان صغيرًا وتركاه وحيدًا، وتمنى أن لو كانا على قيد الحياة ليقبل أقدامهما ويقوم على خدمتهما طيلة ما تبقى من عمره.

شرد ذهن بارون للحظات ولكن رانسي لم تتوقف عن حديثها وهي تعلم أنه لا ينصت لها، وأكملت قائلة: إن هذا المجرم الصغير في عينيك لن يفر يومًا ما من صقر يهاجمه أو من سواه، فهو يستطيع بيديه الملوثتين بالدم، أن يدافع عن نفسه، وعندما يكبر سيتزوج من أنثى تشبه أمه، قاتلة مثلهما، فأمه هي أيضًا مارست القتل لتبقى على قيد الحياة، فيتزوج هذا العاق من زوجة جاحدة فتجحد أبناءها في المستقبل وينتج عن هذا السفاح ابنٌ قاتل ينتمي إلى عائلة من القتلة.

انزعج بارون من سيرة هذا الطائر فقلبه المرهف يتأذى من رؤية مثل هذه الأشياء.

طلب من رانسي أن يذهبا بعيدًا عن هذا المكان قبل أن يسقط مغشيًّا عليه، لكنها أكملت ما شرعت تقوله:

إن الجميل في هذا القاتل أنه تخلص من قاتل مثله، فالجزيرة ليست تحتملُ هذا الكم من القتلة.

أمرها بارون في غضب أن تكفَّ عن الحديث لكنها رفضت وقالت له:

إن كل ما رأيته ليس بجريمة فالجريمة الكبرى لم أتحدث عنها بعد.

دفعت بارون بفضوله وشغفه أن يسألها فقال: وهل يوجد أكبر من ذلك؟!

قالت له: اتبعني.

فطارت رانسي من الشجرة التي كانا عليها إلى شجرة أخرى بجوارها، وبعد أن استقرا على أحد فروعها.. أشارت إلى عش آخر، به طائر صغير السن في الهيئة والمنظر، ولكنه كبير الحجم.

وكان هناك طائران كبيران في السن لكنهما صغيرا الحجم عنه، كانا يطعمانه، وكان هذا الصغير يلتقط منهما الطعم في نهم.

قالت رانسي إن هذا الطائر الذي يطعمانه الآن هو ابن طائر وقواق آخر، فقصصهم جميعًا متشابهة، وهذان اللذان يطعمانه أبواه المزيفان، فهما يسعيان اليوم بأكمله، ليطعما هذا المفجوع الذي لا يشبع.

قاطعها بارون وقال: هل وصل أهل الجزيرة إلى هذا الحد من اللا وعي، إن هؤلاء المساكين الجهلة هم من يقومون بتربية القتلة في أعشاشهم بل يسهرون أيضًا من أجل حمايتهم، وهم من يطعمونهم في أفواههم.

أصيب بارون بإحباط شديد مما رأته عيناه، وتمنى أنه لم يفتحهما يومًا على هذا القبح، وهمَّ بمغادرة المكان وهو في أسى شديد وقال لرانسي: دعينا نذهب من هذا المكان الموحش.

طارا ليكملا رحلتهما، ثم مرا على مكان هادئ بالجزيرة، فهبطا إليه، كان المكان ينساب على مقربة منه شلال صغير، والأشجار تلتف حوله من كل مكان والأزهار بألوانها وعطورها تملأ المكان بهجة، وتبعث في الروح الطمأنينة.

هبطا ليستريحا قليلًا تحت شجرة لها ظل ظليل ليقيهما حر الشمس، وتناولا طعامهما من بين الحشائش وبعد أن انتهيا أحست رانسي بهم يكسو وجه بارون، فسألته ماذا بك؟ فأجابها: لا شيء، وطلب منها أن تفرد جناحها كوسادة له لينام عليها، ففعلت، فألقى برأسه، فوق جناحها، وأغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا، ثم بدأ يذكر همومه وتحدث عن الأشياء التي شاهدها من بعد خروجه من القفص وقال إنها قد أصابته بجرح، وشكى لها أنه لم يحاول من قبل معرفة

تلك الأشياء، وأن ما يعرفه لم يكن شيئًا أمام ما رآه، وذكر لها الحلم الذي كان يراه من حين إلى آخر في منامه، وقال إنه كان يرى أنه كان يسبح في بحر يصارع أمواجه الهائجة، وأنه يكاد أن يغرق فيه، ولم يكن هناك أحد ليمد يده إليه، وتكلم عن الصوت الذي كان يقول له أكمل وحدك، فالشاطئ قريب جدًّا، وأن هذا الحلم كان في الليل، في مكان يكسوه الضباب ولم يكن هناك قمر أو نجوم، وأكمل قائلًا: لا أنا الذي أموت فأرتاح، ولا أنا الذي أنجو من هذا العذاب الذي يلحق بي، وكان هناك طيور تحوم حول رأسي منها من يسخر مني ومنها من يبكي ويرثي لحالي، ولم يمد أحد منهم يد العون لي، كان يتكرر الحلم وتتبدل أحيانًا الأشخاص والأحداث كانت لا تختلف كثيرًا في كل مرة، وكأن الدائرة كانت مغلقة بإحكام جيد، وكأن الحياة أشبه بنص مسرحي كتب بإتقان شديد، وكل منا ما عليه سوى أن يقوم بدوره المسموح له فقط، ولا مجال للخروج عن النص، ومن يفعل، يطرد على الفور من على خشبة المسرح.

كانت رانسي منصتة له وتألمت كثيرًا مما قاله، وشعرت بكم الألم الذي يعاني منه ويحمله في قلبه البريء الطيب، وقالت له: أنت الذي أحببت السجن عن الحياة وتأقلمت على ذلك، ولم تدفع بنفسك خارجه، فخيل إليك أنه أفضل الاثنين، وظننت أن الحرية في أن تعيش وحيدًا، أنت الذي زهدت في السعادة إلى أن أهداك الحزن كل ثروته، وها أنت الآن تنفقها على نفسك في بذخ.

رد عليها بارون بعد أن فتح عينيه وسألها قائلًا: إن الشجرة التي نمت على إعوجاجها، من في استطاعته أن يقيمها؟

أجابته وقالت: مهما كان وضع الشجرة، مالت أم استقامت، لا فرق في ذلك إذ إنها ما زالت قادرة على العطاء. فلا تهتم بالمناظر واكتفِ بالجوهر، بل أحيانًا الشجرة المائلة أغصانها، تكون أدنى بثمارها وأقرب للجميع، ممن حولها من طيور الأرض وطيور السماء، هي أفضل أيضًا ممن علت فروعها تكبرًا وفخرًا.

أصبح كل منهما يعشق حديثه للآخر أكثر من عشقه لصاحب الحديث نفسه، فالكلمة إن طغت بسحرها على قلوب الطير، هام الجميع بها، إلى أعالي السماء فهاموا في المعنى ونسوا قائلها.

تبادلا الأماكن وفرد بارون في هذه المرة جناحه لرانسي، فاسترخت عليه كالملاك.

سألها بارون أن تحدثه عن آلامها، لكي تمتزج مع آلامه فيصيران عذابًا واحدًا.

فقالت: ما أجمل أن نترك الألم ونتجاهله مع العلم أن هذا لا يمحوه، ولكن سيخفف من وطأته علينا.

وقـد كان يخونـني مَـن يخونـني، ولـم أكـن أعتـب عليـه، ولا أقتـص منـه، فـلا حاجـة لـي إلـى ذلـك.

حاولـت رانسـي أن توضـح لـه، أن مـن تعاطـوا منهـا جرعـة واحـدة، لـم يسـتطعيوا الإقـلاع عنهـا، فـكان كل مـن يدمـن شـيئًا فيهـا، حتمًـا كان يعـود إليهـا، كأنهـا تقـول لـه: إنـك لا تسـتطيع أن تتركنـي بطريقتهـا، التـي اعتادتهـا، وأكـدت لـه أن كل مـن وقعـوا فـي غرامهـا يومًـا، أو أسـاؤوا إليهـا، تركتهـم فمنهـم مـن انتحـر، ومنهـم مـن أصيـب بالجنـون، وقالـت وهـي تفتخـر بنفسـها:

مـن ذلـك الغبـي الـذي يظـن أنـه فـي اسـتطاعته أن يدخـل الجنة بعـد أن طـرد منهـا.

كان يستمع بارون إليها في صمت، وقال لها عدتِ تخيفيني إياكِ.

قالـت لـه وهـي تضحـك: هـؤلاء جميعًـا فـي كفـة وأنـت فـي كفـة أخـرى.

كان كل مـن أحبوهـا، أحبوهـا بدافـع غريزتهـم عندمـا كانـت تتوهـج نـار الشـهوة فيهـم، وكان فـي نهايـة المطـاف لا يطفـئ هـذه النـار سـوى المـاء، فمـا أتعـس أن يحيـا الذكـر أسـيرًا لشـهواته، وذكـرت لـه أيضًـا، أنهـا أحيانًـا كانـت تعذرهـم فمـن لـه الطاقـة فـي هـذا الكـون

أن يمنـع نفسـه عنهـا، وهي جميلة الجميلات، تبسـم بارون وأشـاد بقوتها وعـدم استسـلامها رغـم مـا مـرت به من محـن، لكنهـا فاجأته عندمـا قالت لـه: إن قوتهـا التـي تظهرهـا لـه كذبـة، وأنهـا لا شـيء، فهـي مـن الداخـل عكـس مـا ذكـرت لـه، فقليل مـن الهـواء كان قادرًا علـى أن يسـقطها أرضًا، وإن اسـتجمعت كل قوتهـا، فهـي فـي النهايـة مجـرد أنثـى، تكـذب دائمًـا وتسـعى إلـى أن تصدق نفسـها.

الساعة التاسعة

في هذه الساعة بدأ لون الشمس يتغير، وبدأ وجهها يبدو شاحبًا بعض الشيء بعد أن كان منيرًا ساطعًا، وبدأت قوتها تتهاون حينًا بعد حين، ويتضاءل حجمها، وصارت أشعتها بردًا وسلامًا على الطير أجمعين، وأصبح بعض أهل الجزيرة في استطاعته أن ينظر إليها، دون أن يتأذي بصره، وبدأ النهار في مرحلة الشيب والخمول، وأصبح عكازه لا يفارق يده، وازداد وقارًا وضعفًا، لذلك لا يأتي الوقار إلا مع تقدم العمر وتقدم العمر لا يأتي إلا بالضعف.

لم يجد النهار شيئًا يعيش عليه سوى ذكرى بطولاته، وانتصاراته، وتمنى أن يرجع بخطاه إلى الوراء ليعود إلى قوته ووسامته، خوفًا من مصير محتوم وقدر مقدر، ولم يعد قادرًا على أن يشارك في شيء وكل ما يستطيع أن يفعله الآن، هو أن يشاهد أهل الجزيرة من بعيد، دون أن يتدخل في أمورهم.

لمح النهار الذي ضعف نظره، كأن هناك لفيفًا من الطير متجمعًا فوق سطح الجزيرة، وكان هناك ديكٌ مجتمعٌ بطيور الأرض، جمعهم ليحدثهم عن أمر مهم جدًّا.

وكان لفيف من الدجاجات البيضاء والحمراء يقفون من حوله، وبعض من طيور الأوز والبط، كانوا جميعًا ينصتون إليه وكان بين هذا الجمع نسرٌ عظيمٌ، قد تربى بينهم منذ الصغر، أكل من طعامهم

وشـرب مـن مائهـم، فتطبع بخصالهـم حتى صـار مثلهم، لقد أقنعوا النسـر المسـكين بأنـه دجاجـة مـن نـوع مختلـف، فصدق ذلـك بجهلـه وآمن به، ولـم يجـرب يومًـا أجنحتـه فـي الطيـران، بـل لم يسـعَ إلـى أن يكتشـف ما لديـه مـن مواهـب، ومـا أوتـي من قـوة، فعاش بيـن الدجـاج دجاجة.

صـاح الديـك كعادتـه كلمـا بـدأ بحديـث مـا، وقـال: أنصتـوا إلـي جيـدًا، مـا جمعتكـم اليـوم إلا لأمـر مهـم، فلقـد سـئمنا مـن هـذه الأرض المتسـخة، التـي إن أصابهـا قليـل من المطـر، أصبحت طينًا ووحـلًا، فغصنا فيهـا بأقدامنـا، حتـى اتسـخ فينـا كل شـيء، وأصبحنـا لا نجـد الطعـام بسـهولة ويسـر، وإن طيـور السـماء تشـاركنا ليـل نهـار فـي مـا تبقـى لنـا عليهـا، لقـد اسـتحوذوا علـى خيـرات الأرض، ولـم يكفهـم مـا تحتـوي عليه الأشـجار العاليـة مـن رزق، بـل طمعوا أيضًا فـي القليل الـذي نملكه، وهم يسـتطيعون بسـهولة ويسـر أن يصلـوا إلـى مـا لا نسـتطيع نحـن الوصـول إليـه، فعلينـا أن نتحـد جميعًـا لنمنعهـم، فنضمـن أن يكـون خيـر الجزيـرة كلـه لنـا، فنشـبع بطوننـا ونأمـن غذاءنـا.

قاطعتـه دجاجـة مـن الحاضريـن وقالـت: علينـا أن نتعلـم الطيران لنسـتطيع أن نلتقـط الحـب مـن أعالي الأشـجار، فنحن نملـك الأجنحة ولا ينقصنـا سـوى أن نسـتعملها فـي الطيـران وإلا فمـا فائدتهـا؟ ردت عليهـا دجاجـة أخـرى كانـت بجوارهـا وقالـت: يكفي أننـا نظلل بها علـى صغارنا. وأكملـت قائلة:

إن ثمار الأشجار تتساقط علينا من تلقاء نفسها عندما تطيب، فما حاجتنا أن نأتي بشيء قبل أوانه، وليس في ذلك منفعة لنا؟

أشار إليهم الديك أن يصمتا ويكفا عن الثرثرة،ثم وقعت عيناه على النسر صديق طفولته، وسأله هل في استطاعتك الطيران؟ لتساعدنا في جمع الثمار فتخفف عنا وطئة هذا القحط؟

فأجابه النسر وهو متعجب من اختياره له دون غيره من الدجاجات التي كانت حوله. وقال: أنا دجاجة ضعيفة مثلهن، دعني واختر غيري فمن أين لي أن أطير؟ وأنا أثقل منهن وزنًا وأكبر حجمًا.

لم يحاول الديك أن يخبره بأنه نسر، فلو علم ذلك لانتقم منهم جميعًا وسيكون للديك النصيب الأكبر بل سيبدأ به، لأن النسر كان دومًا ما يلقبه بصديقي الصدوق.

قال الديك في سره: من الأفضل ألا أخبره ليظل على غبائه، فبقاؤه بيننا فيه حماية لنا، فما زال وجوده بيننا يمنع كل من يحاول أن يقترب منا من الطيور الجوراح.

نظر إليه الديك وتبسم له قبل أن يدخل معه في جدال لا يعرف منتهاه، وقال له:

أنت بالفعل دجاجة طيبة ونحن جميعًا نحبك. فابتسم له النسر وحياه على رقته البالغة معه.

التفت بعد ذلك الديك إلى قومه وصاح فيهم قائلًا: علينا الآن أن نتكاتف معًا، وألا ندع فرصة لأيِّ طائر قادم من السماء، في أن يشاركنا في أقواتنا، وقبل أن يلتقط واحد منهم حبة واحدة من حبات الأرض علينا أن نتحد جميعًا لنقضي عليه.

صاحت الدجاجات جميعهن، يحيين الديك القائد على هذا الخطاب الثوري، الذي صحح المسار وأعاد الأمور إلى نصابها، فصوته كان دومًا ملهمًا لهم، وعلى الرغم من أن كل الدجاجات كان يربطهن به علاقة حميمية ونسب ودم، فإنه لم تفرق بينهن الغيرة، إذ كن يحصلن جميعهن على أضعاف حقوقهن منه.

استغل الديك هذه الحمية التي رآها فيهم وأشار إلى بارون ورانسي اللذين كان جالسين تحت الشجرة وقال علينا أن نبدأ بهما.

كان بارون ورانسي قد انتهيا من حديثهما، وقاما بمغادرة المكان فذهبا، وهم لا يعلمان ما كان يحاك لهما، من طيور الأرض ولم يلمح أحدهما، قدومهم نحوهم.

طار الاثنان حتى وصلا إلى أهل رانسي في غرب الجزيرة، كان أهل رانسي يعيشون على إحدى الأشجار المعمرة على ضفاف نهر عظيم كان يربط الجزيرة ببعضها، وكانوا كأسرة كبيرة لا يسمحون أن يكون لغيرهم من الطيور الغريبة وجودٌ عليها.

حياهما رانسي وبارون عند وصولهما، واستغرب أبواها، عندما رأيا بارون معها، هذا الطائر البري الذي لا يمت لهم بأيِّ شبَه أو صلة، رحبا بهما وحاولا أن يخفيا غضبهما، وسألها أبواها عن مدى العلاقة التي تجمعها ببارون فقالت لهما:

إن بفضل بارون أنا الآن بين أيديكم، فقد ساعدني كثيرًا وأنا أحبه وسنتزوج الليلة كما وعدني.

تفاجأ الجميع مما قالت حتى بارون نفسه الذي لم يعدها بشيء من هذا القبيل ولم يدرِ ما الشيء الذي دفعها لتقول ذلك.

نزل الخبر على أبويها كالصاعقة، فلم يتخيلا يومًا أن يكون لهما أحفادًا من هذا الطائر عديم اللون والمنظر، ومن ثم اشمأز كل منهما عندما أطلقا خيالهما ليريا كيف يكون لون هؤلاء الصغار الذين سيأتون منهما!

كانت أعرافهم وتقاليدهم تمنع ذلك بشدة وتجرمه، استأذنت الأم رانسي في أن تأتي معها، ليحضرا شيئًا للضيف القادم معها، قالتها وهي تبتسم ولكنها لم تستطع أن تخفي الغضب الذي يظهر على ملامحها.

ذهبت رانسي مع أمها وظل بارون مع أبيها.

تحـدث العصفـور الأب إلـى بـارون بعـد أن اطمئـن أنهمـا غابا عن عينيـه، وسـأله: لـمَ أنـت صامـت ولا تتحـدث؟ كان الأب يحـاول أن يفتـح حـوارًا معـه، وقبـل أن يجيبـه سـأله: هـل أنـت تحبها؟

ابتسم بارون فاستنبط أبوها إجابته، ثم سأله مرة أخرى وقال:

ما الذي أعجبك فيها؟ ألوانها الزاهية أليس كذلك؟

لـم يعقـب بـارون علـى المغـزى مـن وراء سـؤاله وأشـاد بجرأتهـا وعقليتهـا وجمالهـا الـذي لا مثيـل لـه.

لكـن الأب كان حـادًّا معـه عندمـا سـأله قائـلًا: كيـف كان لـون أبيـك وأمـك؟

رد بارون في حزن وقال: كانا مثلي ويشبهانني ولكني لم أرهما.

فقـال الأب: لولاهمـا مـا كانـت هـذه هـي هيئتـك التي أنـت عليها الآن. قالهـا وهـو يسـخر مـن لونـه وأكمـل قائـلًا إن الجمـال الـذي أحببتـه فـي رانسـي سـيقل قـدره إذا جاء لكم صغـارٌ يشـبهونك، وتعلـم أن عائلتنا عريقـة ولـم يحـدث فيهـا مـن قبـل زيجة مثـل هذه.

شـعر بـارون بالإهانـة التـي تعمدهـا أبوهـا لـه، وقـال بـارون فـي نفسـه: لـو أن لـي ابنـة فلـن أزوجهـا لطائـر لا يحمـل سـوى ألوانـه فـوق جسـده، فمـن أراد أن يفتخـر فليفتخـر بعقلـه وحكمتـه لا بلونـه ومظهره.

لـم يحـاول بـارون أن يجادل هـذا العصفـور العجوز، لكـي لا يحتدّ الحـوار بينهمـا، وكل مـا فعلـه بارون أن قـال له: لا تقلق أيهـا العم الطيب، أنـا لم ولـن أمس ابنتك بسـوء.

اكتفـى الأب بمـا قالـه وعلـم مـن جوابـه أن رسـالته قـد وصلـت لبـارون بالشـكل الـذي أراد، فـرأى ألا يوضـح لـه أكثـر مـن ذلـك.

فـي الوقـت ذاتـه كانت الأم تحـدث رانسـي وتوبخها علـى ما أتت بـه إليهم، وسـألتها بضجر:

ما الذي ذكرك بنا بعد كل هذه المدة؟

وذكرتهـا أمهـا عندما وافقـت لها علـى زواجها الأول عندمـا تحدثْها فيمـا اختـارت وقتهـا، ورفضـت ما اختاره لهـا أبواها، وأن ما حـدث لها كان بسـبب اختيارهـا الخطـأ، وقالت لها:

هـا أنـت تعيديـن الكـرة مرة أخرى مع هـذا العصفـور الوقح عديم اللـون، الـذي أتى دون اسـتحياء يطلب من أسـياده أن يتزوجك.

لكـن رانسـي فاجأتهـا عندمـا قالت لها: بـل أنا الذي طلبتـه للزواج، إنـه مختلـف عـن كل ما عرفـت من قبل.

نهرتها أمها بشدة وقالت لها: لمَ جئتتِ به إذًا؟ فما الحاجة إلى الأخذ برأينا إذا كنتما قد قررتما كل شيء، انظري إلى أختيك كيف تعيشان في سعادة راضيتين بما اخترناه لهما، ولم يحدث أنهما تشاجرتا يومًا مع زوجيهما.

قالت رانسي: أنا ما جئت به إلا ليعيش بيننا ههنا.

صدمت الأم بما قالت، وقالت ليس لكما مكان بيننا، ارحلي معه من حيث أتيتما.

حاولت رانسي جاهدة أن توضح لأمها بأنه إن لم يعش معنا ستضطر أن تعيش هي معه بين عشيرته هناك في شرق الجزيرة، وقالت لها أيضًا:

إن النظرة التي تنظرين إليه بها الآن، سوف ينظرون إليَّ بمثلها غدًا وأنا بينهم.

لم يفلح مع الأم رجاء ابنتها، وصممت على ألا تغير ما اتخذت من قرارات.

وقالت الأم: هذا لن يمنعني أن أقوم بضيافتكما، فهذا هو واجبنا نحوكما، وبعدها عليك أن تقرري إما أن تبقي وحدك، إما أن تذهبي به إلى أي مكان شئتما.

قالـت رانسـي: عارضتكـم في المـرة الأولى ولم يفلـح معي، وجئت أسـتأذنكم الآن وها أنتمـا أيضًا ترفضان.

لم تعلق أمها على ما قالت، واكتفت بما قالته لها.

انتهـت الأم مـن الغـذاء الـذي أعدتـه لهما أسـفل الشـجرة، فلم ترد أن يطيـل مكـوث بـارون كثيـرًا فـوق شـجرتهم المقدسـة، لـذا فضلـت أن تجعـل الطعام أسـفلها.

طـارت الأم وتبعتهـا رانسـي حيـث تركـت زوجهـا وبـارون، وقالـت لهمـا إن الطعـام جاهـز لكـم.

كان بعـض مـن أهل رانسـي قـد علمـوا بوصولهـا فجـاؤوا يحيونها، واشـتعلت نـار الغيـرة فـي بـارون عندمـا وجـد بعض الذكـور يرحبـون بها علـى طريقتهـم، فيقـوم الذكـر بتقبيـل الأنثـى بلا اسـتحياء، لذا قـال بارون إنـي جائـع جدًّا، فـي محاولة ناجحـة منه بأن يفـض هذا الاشـتباك العائلي الـذي لا يـروق له.

اسـتأذنتهم رانسـي عندمـا شـعرت أن بـارون لـم يكن ليقـول ذلك، لـولا أنـه رأى شـيئًا لـم يعجبه.

هبـط بارون ورانسـي والأب معهمـا واعتـذرت الأم وتحججت بأنها ليسـت جائعـة، فهـي لـم يطـرأ علـى ذهنهـا يومًـا أن تجلـس فـي مـكان واحـد، مـع هـذا النـوع الرخيـص مـن الطيور.

أثـار غضـب بـارون أن كل مـن جاؤوا لـم يلقوا عليـه التحية وتعمد الجميـع أن يتجاهلـه، ومـن تكـرم منهم ونظـر إليه، نظر إليه بشـفقة، كأنه طائـر جـاء ليتسـول، أو يطلب منهم مسـاعدة ما.

شـعر بـارون فـي نفسـه أن رانسـي أتـت بـه إلى هنـا لتهينـه، أمام أهلهـا لكنـه أعـرض سـريعًا عن هـذا الظن، ولـم يرجحه لأنه يعلمهـا جيدًا، وعندمـا نظـر فـي عينيهـا البريئتين علـم أنها أيضًا مسـتاءة ممـا يفعلونه.

تناول بارون ورانسي وأبوها الطعام المقدم لهم، وتناول بارون بعضًا منه على مضض، فلم يكن يروق له، ولكنه خشي أن يرفضه فتغضب رانسي لذلك، أما الأم فاكتفت بالجلوس في عشها فوق الشجرة.

اسـتأذن الأب منهمـا بحجـة أنـه علـى موعـد مـع أحـد أصدقائـه، فسـمحا لـه.

كان كلمـا مـر طائر من حولهم سـخر مـن الهيئة التـي عليها بارون، حتـى صغـار العصافيـر حديثـو الطيـران لـم يكفـوا عـن الضحـك عندمـا وقعـت أعينهـم عليه.

قـال بـارون سـاخرًا ممـا يـراه: أظـن أن هـؤلاء الطيـور معجبـون بـي إلـى درجـة كبيـرة جـدًّا، ولعلهـم يتسـاءلون الآن فـي أنفسـهم كيـف للسـماء أن تدنـو لهـذه الدرجـة إلـى الأرض، وكيـف يرضـــى النهـار أن

يختلط به سواد الليل، وكيف للقمر أن يسمح للشمس بأن تصافحه عيانًا بيانًا وبينهما عداوة كبعد المشرق والمغرب.

طلبت منه رانسي أن يكف عن هذا، وقالت له: أنت تعلم قدرك عندي، وأعين الطير لا أحد منا في استطاعته أن يغلقها، وأنت بالنسبة إلي الشمس والقمر معًا، وإن كانا لا يجتمعان، فقد اجتمعا في عينيَّ بك.

استمر بارون في حديثه وقال: كيف لأميرة حسناء أن ترضى بمسكين متسول مثلي؟

كان يهذي بالكلمات من حين إلى آخر.

نهرته رانسي وقالت له: كُفَّ عن تلك السخافات، فأنا أعلم أن أهلي لم يقابلونك بالشكل الذي تستحقه وقد يكون لونك أفضل من لوني في عين غيرهم، وقل لي: منذ متى وكان اللون سببًا في أن نختلف ؟

إن ما بداخلنا واحد لا يتغير وهذا هو الأهم من كل شيء، ثم فردت جناحها الأيمن وضمته مرتين كما كان يفعل بارون أحيانًا، لقد التقطت بعضًا من حركاته التي يفعلها دون قصد منه.

وعندما علق بارون على ذلك قالت له:

إن هنـاك جاذبيـة خفية لا يشـعر بها إلا كل عاشـقين عندما تتحول الأفكار والحركات من تلقاء نفسـها بداخل من يعشـقه دون أن يشـعر.

ثـم قالـت لـه بعـد أن عـادت ابتسـامته إليه: هيـا نذهب مـن هنا، فأنـا أعلـم أن هـذا المكان لا يـروق لك.

الساعة العاشرة

يحاول النهار جاهدًا مع الشمس أن لا تتخلى عنه، ويمسك بطرف ثوبها الذهبي ويركع على ركبتيه، ويترجاها أن لا تتركه ينازع الليل وحده، ولكن الشمس أبت أن تشارك في هذه المعركة الخاسرة، وترى أن الاستسلام أحيانًا يكون خيرًا من الهزيمة في حالة توقعها، وأنه يجب على كل من هرم، وانتهى دوره في الحياة أن يترك مكانه لغيره حفظًا لماء وجهه قبل أن يأتي من ينتزعه منه رغمًا عنه.

ظن النهار أنها بذلك تخونه ولا تقف معه في محنته، وأنها تحاول أن تتنحى عنه جانبًا، وهو في أشد الاحتياج إليها، لكنها أصرَّت على الانسحاب، لأن ذلك سيقلل من الضرر الذي قد يقع عليهما، غضب النهار منها غضبًا شديدًا ونزع تاجه عن رأسه وألقى به، فظهر شيبه بوضوح لها، ثم ألقى بصولجانه من يده التي كانت ترتجف قليلًا، وصرخ بأعلى صوته في الجزيرة كلها: أنا الملك، أنا الملك، أنا الملك.

لم يعد صوت النهار مسموعًا بالدرجة الكافية لأهل الجزيرة بعدما أصابه من وهن وضعف، حتى الغربان المتجمّعون هنالك في أقصى الجزيرة لم ينتبهوا لصوته، فقد كانوا مشغولين بقضيتهم، التي هم بصددها.

وكان الغربان متجمعين على شكل دائرة كبيرة، في المكان والموعد الذي حدده، قاضيهم الأكبر، الذي أعطى مهلة أسبوع لأنثى الغراب المتهمة في نسب ابنها ذي اللون الأبيض، بعد أن تقدم زوجها بشكواه إياها، وبالطعن في صحة نسب الصغير الذي أنجبته، ولم يكن الأسبوع سوى مهلة أعطاها القاضي للأم، على وعد منها أنه سوف يتبدل ريشه إلى اللون الأسود.

لقد عانت الأم منذ أن خرج ابنها من بيضته، بسبب حديث الغربان الذين لم يكفوا عن تجريحها، حتى جعلوها لا تبرح عُشها لمدة الأسبوع الماضي بالكامل لكي لا تتعرض لأذاهم وشتائمهم.

هجرها الجميع ولم يعد أحد يود أن يتحدث إليها أو ينظر إليها، فلم تجف دموعها منذ ذلك الوقت، حتى ضعفت وهزل جسدها، ولم يكن يصبرها سوى نَعّابها الصغير صاحب اللون الأبيض والقلب الأبيض.

لقد كانت النظرة إلي وليدها هي التي تخفف عنها من أوجاعها حين كانت الآلام تهاجمها من كل جانب، ودائمًا ما كانت تسعد بكلماته عندما كان يقول لها:

أنا ابنك يا أماه، وابن أبي الذي أنكرني، ولا يشغلني أمر لوني.

كان الصغير يتألم من رؤية دموع أمه كلما بكت، ويبكي لبكائها.

أما من حولها من الغربان فقد كانوا يضطهدونها لأنها أتت بهذا المسخ الأبيض على حد قولهم، لأنها كانت الحادثة الأولة من نوعها فلم تأتِ أمٌّ من قبل بمثل هذا الشيء، ولذلك كان المميزون دائمًا مضطهدين.

وقفت الأم المسكينة هي وصغيرها وسط الدائرة المحاطة بالغربان من كل جانب، وما زال الدمع يفيض على خديها ولا تستطيع أن توقفه، فإن شر الطعنات هي تلك التي تطعن بها أنثى بهذا الطهر في شرفها.

كان الصغير واقفًا بجوار أمه لا يخشى شيئًا سوى أن يرى أحد دمعها وانكسارها، فهذا كان يؤلمه أكثر من اتهامهم إياها.

أما زوجها الذي تقدم بإهانتها خوفًا على سمعته بينهم، فكان يقف مطأطئ الرأس ويكسوه الخجل، وبدلًا من أن يقف بجوار زوجته التي صانته في محنتها، كان هو أول من طعن في شرفها، بل أسرع بالإبلاغ عنها وحكم عليها قبل أن يعلم أحدٌ بالأمر لكي لا يعيش بينهم منبوذًا.

أفسح الغربان الطريق عندما تقدم أكبرهم سنًّا، فهذه كانت عادتهم، أن ينصبوا أكبرهم سنًّا قاضيًا عليهم، لا أكثرهم علمًا وخلقًا.

جاء الغراب القاضي ووقف على مسافة من الأم وصغيرها، وبدأ الغربان حولهما يهتفون مطالبين إياه أن يحكم بقتلهما.

أشار الغراب الأكبر لهم أن يلتزموا الصمت وينصتوا جميعًا، فالتزموا وعمَّ الهدوء.

وجه القاضي سؤاله إلى الأم وقال: لقد مرت الأيام السبع ولم يتغير لون صغيرك كما قلتِ؟ والآن لا نملك سوى أن ننطق بالحكم عليكما.

كان زوجها يقف بينهم ويحاول أن لا تصطدم عيناه بعينيها الدامعتين، بل لم يستطع أن يرفعهما فيها بعد أن اتهمها بالباطل، فعندما تجتمع الخسة في ذكر، فاعلم أن أول من سيجني عليهم هم أهل بيته والمقربون منه.

لم ترد الأم على القاضي وتكفل الصغير بالرد عليه وقال: إن أمي أطهر من زوجاتكم بل هي أطهر مَن على الجزيرة كلها، ولا يوجد من هو في عفتها، إن أمي التي تتهمونها، كان في استطاعتها أن تتجنب إهانتكم ومحاكمتكم، وتلقي بي خارج عشها من اليوم الأول لي، أو

كانت دفنتني حيًّا دون أن يشعر منكم أحد، لكنها لم تفعل، ولا شيء سوى الصدق الذي دفعها أن تتحملكم وتقبل بالمثول أمامكم ظنًا منها أنكم أهل عدل، وشئتم أم أبيتم أنا ابنها، وجزء منها تكونت في أحشائها وتربيت في حضنها، وأنا ارتضيها أمًّا لي فما الذي يضركم في ذلك؟

تشجعت الأم عندما رأت ابنها يدافع عنها بهذه الحماسة والقوة،

وقالت: لو نعلم مكانًا آخر فوق هذه الجزيرة ما ترددنا لحظة في أن نهاجر إليه، لكننا لن نفر هاربين، من خطأ لم نرتكبه، وننتظر عقوبتكم، ويكفيني من الدنيا أن أموت مع هذا الابن البار.

اشتد غضب الجميع من تطاولها هي وابنها عليهم، ولكنهم التزموا الصمت على مضض حتى يأذن لهما القاضي، وحاولت الأم أن تهدئ ابنها لكنه أبى أن يقبل بعقوبته دون أن يبوح على الأقل بما في صدره من ألم.

تعجب القاضى من هذا الصغير الذي أهانهم وتطاول عليهم، وتعجب أيضًا من فرط ذكائه وفصاحته وهو في مثل هذه السن، فخطرت للقاضي فكرة أن يستغل هذا ضده، وأثبت للحضور بأن هذا المتفوه الصغير، ليس من صلب أبيه الأبله، والدليل أن أباه الذي هو أضعاف سِنّه لا يملك ربع ذكائه.

نعقت الغربان وفرحت وحيَّت القاضي، فأومأ برأسه إليهم وحياهم، ونطق بالحكم عليهما، وأمر بأن يقتلا بأيدي كل من حضروا، ليكونا عبرة لكل من تسول لها نفسها، وتأتي بغريب أبيض، لا يحمل لوننا الأسود المعهود.

حضن الصغير أمه وبكيا معًا فاختلط دمعهما وانساب على الأرض فخضرها، وقال لها:

هوني عليك يا أماه إن هذه الجزيرة لا تقبل بالشرفاء عليها.

هجم الجمع الغفير بلا رحمة عليهما، وطرحاهما أرضًا فسقطا قتيلين وانسابت دماؤهما على الأرض الطيبة.

وكعادة الغربان وطقوسهم إذا خانتهم زوجاتهم، يتحتم على الزوج أن يشرب من دم زوجته انتصارًا لشرفه، فمد الزوج منقاره وأخذ جرعة صغيرة منه، فأودت بحياته وأسقطته ثالثًا بجوارهما.

طار بارون وطارت رانسي دون أن تودع أهلها، وذهبا إلى مكان قريب منهما ليستريحا قليلًا من الإجهاد بهذا اليوم الشاق، كان المكان رائعً ومبهجًا للروح ولقد اختارته له رانسي وقالت له إنها تحب هذا المكان لما يحمله من ذكريات معها، عندما كانت صغيرة، فلطالما كان أبواها يصطحبانها إليه، كانت الطبيعة تطغى بسحرها فوق هذا المكان

الرائـع، أرسـل النهـر نسـماته عطرًا عليهما فسـكرا، والشـمس التـي قاربت علـى الغـروب رأيـا صورتهـا علـى صفحـة النهـر، عندمـا كانـت تسـتخدمه كمـرآةٍ لهـا، وكانت الأشـجار تطوقهما وتحيـط بهما من كل مـكان، والورود تلتـفُّ حـول رقبة الأشـجار كعقـد فريد.

نظـر بـارون لهـذا الفيـض مـن الإبـداع، وقـال: مـن قـال أنَّ الجنـة ليسـت علـى هـذه الأرض، وأقسـم لهـا أن الجزيـرة فوقها مـا لا يوصف وما لا يسـتطيع خيـال أن يصفـه، ولكـن عيوننا هـي التي ترصـد كل قبيح فيها.

وتساءل قائلًا: أين كان غائب عنا كل هذا السحر؟

وكان أكثـر مـا زيـن هـذا المنظر فوق هذا الشـاطئ، أعـداد الطيور الهائلـة، التـي أتـت مـن كل مـكان، لتنعـم بهـذا الجمـال وقالـت رانسـي عندمـا رأتـه مبهـورًا بهـذا الجمـال مـن حوله:

إن مـن يتـرك ديـاره ويأتـي إلى هنـا لمرة واحـدة، مـن الصعب أن يطاوعـه قلبـه فـي العودة، حقًّـا إن على هـذه الجزيرة ما يسـتحق الحياة.

اقتربـا مـن النهـر فشـربا حتـى ارتويـا، وكان المـكان مزدحمًـا بكل أطيـاف الطيـور، حيـث الجميـع كانوا يأتـون ليمتعوا نظرهم بهـذا الجمال، هنـا حيـث لا ينظـر أحد إلـى أحد.

لمحت رانسي بعينيها، أن هناك عصفورة من بين هؤلاء الطيور تنظر إليهما.

كانت على مسافة قريبة منهما، همست رانسي في أذن بارون وقالت له إن هناك من ينظر إلينا وأشارت إلى عصفورة حسناء كان يميزها لونها الأزرق الذي يتخلله بعض الريشات السوداء

قال بارون مداعبًا إياها: أظنها معجبة بي، أو لعل هذا الجمال الذي من حولنا عكس صورته عليَّ فجعلني أبدو حسن المنظر في عينيها، وكما تعلمين أني فائق الجمال والقوة، وما من أنثى نظرت إلي إلا ووقعت في غرامي.

ضحكت رانسي وتقبلت مزاحه ولم تشعل كلماته التي ألقاها أي نوع من الغيرة فيها، فما قال ذلك إلا لأنه تمنى أن يراها وهي تغار عليه.

قالت رانسي: إني أشبه عليها وأشعر بأني رأيتها من قبل.

كانت العصفورة التي يتحدثان عنها تقف مع ذكر ولاهما ظهره، لذلك لم يتعرفا عليه، وكان يتحدث إليها وهي تمعن النظر فيهما.

أعادت رانسي الكلمات نفسها بطريقة أخرى فقد أصابها الأمر بالحيرة فقالت: أظن أني رأيتها من قبل فوجهُها مألوف لي، لكني لا أذكر أين التقينا.

حـاول بـارون أن يوضـح لهـا أن بعـض الطيـور قريـب الشـبه مـن بعـض، وسـألها ألّا ترهـق نفسـها بالتفكير في هـذا الأمر، وأمرهـا أن تخرج صورتهـا مـن رأسـها، وقـال لها:

إن الأمـر مرهـق جـدًّا فعندمـا ترى أحـدًا أو يخيـل إليك أنـك رأيتِه مـن قبـل ثـم تتذكرينه عندمـا يذهب بعيدًا عنـك، لذا أمرها بأن لا تشـغل بالهـا بأشـياء قـد تأتي وحدهـا دون عناء الذهـاب إليها.

لاحظـا فـي أثنـاء حديثهمـا أنها تقتـرب نحوهما، بعد أن اسـتأذنت مـن الطائـر الـذي تقف معـه، وعندما اقتربـت منهما بدا علـى وجه بارون أنـه يريـد الهـرب، فسـأل رانسـي أن يذهبـا الآن، لكـن رانسـي قالـت لـه: انتظـر حتـى نعلـم من هـي ومـاذا تريد؟

قـال لهـا بـارون: سـتخجلين منهـا عندمـا تسـألك عـن شـيء ولا تتذكرينـه، أظـن مـن الأفضـل أن نذهـب.

ولكـن لا فائـدة مـن الهـرب فقـد اقتربـت منهمـا وألقـت السـلام عليهمـا فـردا السـلام ورحبـا بهـا ثـم قالـت: سـعيدة برؤيتـك يـا بـارون، فحياهـا قائـلًا مرحبًـا إيلينـا.

أحس بارون أن رانسي قد صدمت فيه.

ثم سألته: أكنت تعرفها وتدعني طيلة الوقت أفكر من هي؟

لم يجد بارون من الكلمات ما يسعفه ليبرر أسفه فالتزم الصمت.

قالت إيلينا لرانسي: كنت أظنه تغيَّر عندما وقعت عيني عليه وهو معكِ.

أجابتها رانسي وقالت: أظن أنه لا يتغير، فهو كما هو لا أحد يستطيع أن يعرف ما الذي يريده، ولا أحد يدري ما الذي يجنيه من فعل تلك الأشياء!

شعر بارون بعد تغير لون وجهه بأنه محاصر الآن بين أنثيين، وهو الذي لا يقدر على مجاراة واحدة في حديث.

قالت رانسي لها: لقد تذكرتك! أنتِ العصفورة التي رأيتها عندما سمح لي أن أرى ما بداخله. ثم تأسفت لإيلينا وأكملت قائلة قد كانت لقطات عابرة، ولم يُتَحْ لي أن أرى قصتكما بالتفصيل.

ثم استأذنت رانسي بعدها وقالت: لقد نسيت أن أودع أبي وأمي سأترككم عسى أن يكون هناك شيء لا تريدانني أن أسمعه.

تركتهما رانسي بالفعل وظل بارون يتابعها بنظره حتى اختفت عن نظره، ثم أدار وجهه بعدها إلى إيلينا وقال وهو يحاول أن يخفي غضبه منها: ما الذي أتى بك؟

كانـت إيلينـا تظـن أنـه سـيفرح لرؤيتهـا ثانية، لكـن ما بـدا لها منه كان عكـس مـا توقعت.

تبسـمت لـه إيلينـا وقالـت: جميـل أن أراك طليقًـا حرًا، قـرار جيد، لطالمـا عرضـت الأمـر عليـك من قبـل ولكنـك رفضتنـي وقتها، علـى الرغم مـن أنـي متأكـدة أنـه لـن يسـتطيع أحـدًا أن يهبـك مثل مـا أعطيتك.

حـاول بـارون أن يظهـر لهـا أنـه مسـرورٌ لرؤيتها وأنها لـم تغب عن عقلـه يومًـا، وأنـه لم يكـن لطيفًا معها بالقـدر الذي تسـتحقه، وتحجج بأن وقتهـا كان الخـوف يقيـده بقـوة ويسـيطر عليـه، ثـم ترجاها بعـد ذلك أن تغفـر له وتسـامحه فهـو لم يقصـد أن يخدعها.

أشـارت إيلينـا إلـى صديقها الـذي مـا زال يوليهما ظهـره، وما زالت ملامحـه لـم تظهـر لـه، وقالـت: لـدي الآن صديـق رائـع لقد حصلـت عليه اليـوم وهـو أيضًـا يحبني، لـو قابلتني صباحًـا لرأيت معي طائـرًا آخر أفضل منـه، أظنـه كان مـن فصيلـة الزبَّـرا، وكان يحبنـي أيضًا، حتى انتهـى كل منا مـن احتياجاته مـن الآخر.

كانـت تكلمـه وهي تبتسـم ولكن دمعًـا في عينيها خبأتـه، ولم ترد له أن يـرى الحياة.

حاول بارون أن يلتف حولها بكلماته التي كانت تعشقها، في أثناء لقائهما الأول في القفص المقابل له، الذي سكنت به رانسي فيما بعد.

لكـن للأسـف الكلمـات لـم تعـد تؤثـر فيهـا بشـكل جيـد، فلقـد ازدادت صلابـة، وتعلمـت كيـف تعيـش ولا تعطـي الأمـان لذكـر، وتعلمت كيـف تنـال منهـم مـا تريـده هـي لا مـا أرادوا هـم.

لقـد تغيـرت إيلينـا الضعيفـة الجميلـة، بسـبب أثـر الجـرح الـذي تسـبب لهـا فيـه بـارون منـذ ودعتـه عندمـا علمـت أنـه لا فائـدة منـه.

وضّحـت لـه إيلينـا أنهـا تخشـى علـى تلـك المسـكينة التـي معـه وقصـدت بكلامهـا رانسـي وقالـت لـه:

أخشـى علـى تلـك المسـكينة التـي تحمـل لك فـي عينيهـا كل هذا الحـب، عندمـا تجـد فـي نهايـة المطـاف أنهـا لن تحصـل على شـيء منك، وتعـود مـن رحلتهـا معـك خاويـة اليديـن، فأنـا لا أجـد مـن الكلمـات مـا أسـتطيع أن أصـف لـك بـه قـدر الألـم الـذي سـوف تتعـرض لـه، إن أخطر شـيء علـى الأنثـى أن تحب بصـدق، ثم يتضـح لها ممن تحبه أنـه لم يكن يحبهـا بنفـس هـذا الصدق.

كان بارون ينظر إليها ويلزم الصمت ولم يرد أن يقاطعها.

فأكملـت إيلينـا قائلـة: أقسـم لـك أنهـا مهمـا سـتعرف بعـدك مـن الذكـور، فلـن تشـعر بطمأنينـة مـع أيٍّ منهـم، وأن القلب الـذي ذاق طعم الحـب مـرة، مـن الصعـب أن يسـتطعم مـن بعـده حبًّـا آخر، حتـى لو كان أشـهى منـه وألذ.

لقد تغيرت إيلينا كثيرًا وكان سبب هذا التغير، ما خرجت به من قصتها مع بارون، وهذا ما لاحظه بارون من نبرة صوتها الحزينة، لقد بانت له مكسورة وجريحة، رغم ما حاولت بكبريائها أن تخفيه عنه.

سألها بارون وقال: ماذا عني ألا تخشين علي من شيء؟

قالت له بأنها تخشى عليه من نفسه التي تقربه من بعضهم دون سبب وتبعده دون سبب واضح، وأن عليه الوفاء بالعهد، ما دام لم يجبره أحد عليه، وسألته ألا يخطو في طريق إلا وهو يعرف إلى أين يذهب به. ثم توقفت وتبسمت عندما رأت في عينيه انبهاره بها.

فقال لها: لقد تبدلتِ كثيرًا.

أجابته وقالت: إن الفضل يعود إليك، لقد صنعت لي معروفًا بأن جعلتني أرى من بعد ما كنت لا أبصر شيئًا، لقد فكرت مليًّا في الانتقام منك، ولكني الآن لا أجد ما أملك لأشكرك به على حسن صنيعك معي. لقد ظللت كثيرًا مختبئة خلف أضلعي أنظر وأترقب حتى جئت أنت فجرحتني فتسرب نور الشمس إلى داخلي.

أومأ إليها برأسه وهو يبتسم لها وقال: إن كل طريق جديد يخطو فيه الطائر، بالطبع لن يعرف ماذا ينتظره هناك، إلا إذا ذهب بنفسه إليه وعند وصوله، هو من عليه أن يحدد البقاء فيه أم العودة منه، وتعلمين أن كثيرًا من الطرق نهايتها ليست واضحة من البداية، وإذا كانت كل النهايات مجهولة، فهذا لن يجعلنا نخطو في طريق قط.

ثـم سـألها قائـلًا: هـل تريدينـنا أن نقـف بأماكننـا، حتـى ينتهـى بنا الأمـر حيـث نحـن، دون أن نخطـو خطـوة واحـدة فـي أي طريـق؟

أجابـت إيلينـا وقالـت لـه: لقـد ازددت ذكاء علـى ذكائـك، لقـد ازددت خطـرًا علـى خطـر.

قال مداعبًا إياها: من نحن أمام جمالك الفتان أيتها الأميرة.

ضحكـت إيلينـا حتـى عـلا صوتها وقالت لـه: لا تحـاول أن توقع بي فـي شـباكك مـرة أخرى، إن العصفـور لا يقع في الفـخ مرتين.

التفـت علـى صـوت ضحكتها ذلـك العصفور الـذي كان واقفًا معها، واقتـرب منهمـا وتفاجـأ بـارون عندمـا رأى أنه محـب زوج درة المسـكينة، فتسـاءل بـارون فـي نفسـه كيـف سـبقني إلـى هنـا، وكيـف التقيـا، أم أن الطيـور علـى أشـكالها تقع؟

ألقـى محـب عليهما السـلام ونظـر إلى بـارون بسـخرية وقال وهو يضحـك: سـعيد بـأن أراك تتنفس بحريـة خارج قفصـك اللعين.

لـم يـرد عليـه بـارون فكـم كان يمتـلأ قلبـه غيظًـا منـه، ثـم سـأله كيـف حـال درة المسـكينة، التـي تركتهـا وهربـت؟

ضحـك محـب بصـوت عـال وقـال: ألا تعلم أنهـا ماتت، لـم تتحمل تلـك الغبيـة غيابي عنهـا للحظات.

كانت إيلينا عن يمين محب فضمها إليه بجناحه الأيمن، وقال: إن معي الآن من هي أفضل منها.

لقد علم محب خبر موت زوجته درة من أحد أصدقائه، الذي قابله بالصدفة منذ قليل، ولم يمنعه خبر وفاتها من أن يمارس عاداته السيئة بدونية كما اعتاد أن يفعل.

تعجب بارون من جنس هذا الطائر الذي يعيش حياته ولا يكترث لمشاعر من حوله، وتساءل كيف يجرؤ أن يسخر من الموت هكذا بملء فيه، ألا يعلم أن الموت هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحد منا أن يعاديه أو يحاربه.

ودَّعت رانسي أبويها، وسألتهما أن يتمنيا لها حياة سعيدة مع من اختارته، ولم يجد الأبوان سوى أن يوافقاها على ما تحب، فهم يعلمون جيدًا أنها عنيدة وأنها في نهاية المطاف ستفعل ما تريد، ولن يقدم أو يؤخر رفضهما من شيء، لذا لم يبخلا عليها بأن يجعلاها تعيش مرتاحة الضمير.

عادت رانسي إلى بارون فوجدته ما زال كما تركته مع إيلينا، فحيتهما وتفاجأت هي أيضًا بمحب بينهما، فسرعان ما عرفته، وحاول محب أن يتكلم معها ولكنها تجاهلته وطلبت من بارون أن يذهبا الآن، استأذنهما بارون، فأذنا له، فودعاهما، وتمنت إيلينا لهما حياة سعيدة.

طار بارون ورانسي وغادرا المكان...

الساعة الحادية عشرة

قـررت الشـمس أن تبتعـد عـن النهـار وفـرت هاربـة منـه، فتجمـع بعـض السـحب في السـماء وحاولـوا أن يعترضوا طريقها لكنهـم لم يفلحوا بالإمسـاك بها.

انفطر النهار من حزنه، فلم يكن يظن أن الشمس التي هي من صنعه ستتركه بهذه الصورة الرخيصة، فهي لم تكن الشمس الأولى التي تفر هاربة مخافة بطش الليل، ولم يكن السلاح الأول الذي يصنعه صاحبه ويغدر به، إن من يضعف يتخلى عنه كل شيء حتى من احتموا به في وقت قوته، فالجزيرة الآن لا حاجة بها إلى عجوز مثل هذا النهار، كان النهار يأمل ألا يغيب ضوؤه للحظة عن الجزيرة، بدلًا من أن تلجأ السماء إلى إرسال نهار آخر في اليوم الذي يليه، ليكمل مسيرة الضوء ويحارب هذا الظلام الحالك الذي فرض عليها، كان النهار يستطيع أن يجزئ ضوءه على مراحل، ليمكث أطول وقت ممكن فوق الجزيرة، لكن محبته في إدخال النور على الطير جعلته يسرف نوره عليهم جميعًا في بذخ.

تجمـع عـدد كبيـر من الطيـور من أهل الجزيـرة، عندمـا علموا بأن عـددًا كبيـرًا مـن الطيـور المهاجـرة قـد هبـط علـى جزيرتهم صبـاح اليوم، فأعـدوا أنفسـهم جيـدًا وتجمعوا من كل نـوع، وتركوا عداوتهـم جانبًا لأول مـرة عندمـا شـعروا أن هناك خطـرًا قادمًا عليهـم جميعًا، فتجمـع عدد من النسـور والصقـور والغربـان والعصافيـر، وذهبـوا إلـى حيـث هبطـوا، على أطـراف الجزيـرة، من ناحية الشـرق.

كانـت الطيـور المهاجـرة أعدادهـا متزايدة، فهبطت طيـور الجزيرة فجـأة وحاصرتهـم مـن كل مـكان واصطفـوا فـي مجموعات، ثـم تقدم من بينهـم قائدهم النسـر الأعظم.

فتقـدم إليهـم ونـادى فيهـم أن ارحلـوا من علـى جزيرتنا في سـلام آمنيـن، وألا تعـودوا إلـى هنا مـرة أخرى.

انتبهـت الطيـور المهاجـرة عندمـا تكلـم، وعمَّ بينهـم الصمت حتى ينتهـي النسـر الأعظم من حديثـه إليهم.

أكمـل النسـر قائـلًا لا مـكان لكـم بيننـا، فنحـن لا نسـتطيع أن نُضيِّفكـم فـوق أرضنـا، فطعامنـا لا يـكاد يكفينـا، ولا نريـد مـن صغارنـا أن تبصـر عاداتكـم، لكـي لا يصيـروا أمثالكم، وأننا لنخشـى علـى ذكورنا الذين ليـس لهـم سـوى الحديـث عـن إناثكـم منـذ أن حللتـم علينـا، ونخشـى أن ينجذبـوا إليهـن، فيتركـون زوجاتهـم وصغارهـم ويلهثـون خلفهـن.

استاءت الطيور المهاجرة مما مر على آذانهم من صوت هذا الطائر المتغطرس الذي يتحدث على لسان أمته، وبدؤوا يتحدثون فيما بينهم بصوت خافت رافضين هذا الخطاب الذي وجهه إليهم وأهانهم به.

وبمجـرد أن انتهـى النسـر الأعظـم مـن كلمتـه، خرج له طائـر مثله مـن بينهـم، إنه قائـد الطيـور المهاجرة وكان نسـر مثله.

فتقدم جماعته وأشار إليهم أن يلتزموا الصمت ثم وجه حديثه إلى طيور الجزيرة قائلًا: نحن نعلم قبل مجيئنا إلى جزيرتكم، أن لن نجد ترحيبًا منكم، ونعلم أيضًا أنكم لا تقبلون بغريب بينكم، وكنا نتساءل قبل مجيئنا إلى هنا: كيف لمن يختصمون فيما بينهم أن يقبلوا بنا بينهم؟! فمن لا يقبل بنفسه لن يقبل بغيره، لقد جئنا مرغمين لا مستعمرين، جئنا لاجئين لمدة قصيرة حتى يهدأ هذا الإعصار الذي ضرب جزيرتنا ودمر الأخضر واليابس فيها لقد اقتلع الأشجار وما تبقى لنا من ذكريات عليها، فهدمت الأعشاش وقتل آلاف الأبرياء من الطيور الصغار، الذين لم يستطيعوا أن يفروا معنا، لم نكن يومًا نفكر بالهجرة، وتمنينا أن نحيا ونموت في الوطن الذي ولدنا فيه، لكننا أجبرنا مرتين مرة بهذا الإعصار ومرة أخرى ونحن نقف أمامكم الآن مذلولين نرجوكم ونطلب منكم الصفح.

كان لكلماته صدى في الجزيرة كلها، بل تحرك لها الحجر والشجر لكن طيور الجزيرة لم تعِ شيئًا مما قال ولم يتحرك فيهم ساكنٌ.

كان بعض الطيور المهاجرة يظنون أن طيور الجزيرة، سوف يحسنون الضيافة ويرحبون بهم، كانوا يظنون أنهم أمة واحدة، وأنهم إذا اشتكى منهم طائر سهر علي رعايته أخوه.

استغرب بعض الطيور المهاجرة لهذا اللون الواحد الذي لم يشفع لهم عندهم وهذا الدم الواحد الذي عاملوه معاملة الماء الراكد وهذا الشدو والألم الواحد الذي اجتمعوا وتفرقوا عليه.

عـاد زعيـم الطيـور المهاجـرة وأكد لهم أنهـم جاؤوا مسـالمين ولم يأتـوا ليشـعلوا نار العـداوة بينهم.

وقـال لهـم: إن القهـر الـذي وقـع علينـا هو مـا أجبرنا علـى الهجرة إلـى جزيرتكـم، ولقـد تعهدنـا من قبـل مجيئنـا إليكـم، أن لن نـؤذي طائرًا منكـم بسـوء، بـل هبطنـا في أطـراف الجزيرة حيـث لا أحد منكـم، لكي لا نجـور علـى طعامكـم، وتعاهدنـا جميعًـا ألا نـأكل أكثر من نصـف حاجتنا، وألا نؤذي شـجرة بسـوء.

كان بعـض مـن طيـور الجزيـرة الذيـن تجمعـوا ضدهـم، قـد رقـت قلوبهـم لحديـث زعيـم الطيـور المهاجـرة، ولكنهم اسـتحوا مـن أن ينظروا فـي عينيـه ووضعـوا رؤوسـهم فـي الأرض خجـلًا منـه، عندمـا علمـوا أنهـم لا يسـتطيعون أن يغيـروا شـيئًا ممـا فرضته عليهـم عاداتهـم وجهلهم، فهم يعلمـون جيـدًا أن مـن حـق الطائـر علـى الطائـر أن يقـف بجـواره ويأويه فـي محنتـه، لكن عـادات الجزيـرة القديمة التـي توارثوهـا، كانت هي من تمنـع الشـرفاء منهـم أن يقولـوا كلمـة حـق فـي وجـه الباطل الذي أسـدل سـتائره علـى عقولهـم وأبصارهم.

ظلـوا ينظـرون إليـه ولـم يحـاول أن يقاطعـه أحـد منهـم فأكمـل زعيـم الطيـور المهاجـرة حديثـه مسترسـلًا وقـال: ضعـوا أنفسـكم بأماكننا فلـو كان أصابكـم مـا أصابنـا، لـم نتـردد فـي أن نتـرك أعشاشـنا لكـم وننام فـي العـراء، وكنا سـنأتي إليكـم بالطعام إلـى أفواهكـم، دون أن تتعبوا في البحـث عنـه، لكن الأيـام دول.

كان زعيم الطيور المهاجرة يعلم أن لا فائدة من الحديث إليهم، فهو على يقين أن قلوبهم غلف وما قال ذلك، إلا ليقطع الشك باليقين أمام أعينهم، ويعرّي أهل الجزيرة أمام أنفسهم وأمام قومه، ولكي لا ينتظر قومه منهم مساعدة ما.

طأطأ النسر الأعظم رأسه ونظر إلى الأرض خجلًا وشعر بأنه تعرى أمام نفسه، رغم كثافة الريش الذي على جسده.

ولكن هذا لم يمنعه أن يكمل ما قد بدأه معهم وطلب منهم أن يغادروا وقال له: إن حديثك لن يجدي نفعًا، وإن لم تتركوا الجزيرة من تلقاء أنفسكم، سنضطر أن نقاتلكم عليها.

كانت أعداد طيور الجزيرة التي تجمعت أضعاف أضعاف الطيور المهاجرة، وليس من الذكاء في شيء أن يفر الطير من الموت هناك ليلقوه هنا.

قال زعيم المهاجرة في كلمة أخيرة يأمر أهله بالرحيل: إن الموت على أرض الوطن، لأشرف لنا من الموت فوق أرض غريبة، وعلى أيدي إخواننا.

طلب بعض الطيور المهاجرة أن يمهلوهم حتى نهار اليوم التالي حتى يتسنى لهم الرؤية في هذا السفر الشاق ولكنهم رفضوا أن يستثنوا ذلك لهم.

ابتعد بارون ورانسي قليلًا عن هذه الضوضاء من حولهم وذهبا إلى مكان أكثر هدوء حيث قليل من الطير حولهم.

انتظر بارون أن تسأله عن علاقته بإيلينا ولكنها لم تفعل، وهو أيضًا لم يحاول أن يخبرها بشيء، وإن كان قد جهز بعض الردود ليدافع بها عن نفسه، لبعض الأسئلة المتوقعة منها.

كان بارون دائمًا يفضل الأماكن التي بها بعض الطير، لكي لا يتاح لها الفرصة أن يختلي كل منهما بالآخر، فيسهل عليها أن تأخذ منه ما تريد عنوة، فبارون كان دائمًا يخشى أن يقع في الخطيئة معها، وإن كان بارون لاحظ عليها أنها في الساعات الأخيرة بدت طبيعية وأكثر هدوءًا مما كانت عليه في الساعات الأولى.

و بعد أن هبطا على إحدى أشجار الجزيرة، قال لها بارون:

ألم تلاحظي شيئًا غريبًا، أننا كلما ذهبنا إلى مكان تابعتنا الطيور بأبصارها، وأنا ما عدت أحتمل ذلك.

أجابته رانسي وقالت: نحن لا نستطيع أن نغلق أعين الطير.

قال بارون وهو يضيق صدره من هذا الأمر:

إني أكاد أسمع ما تنطق به صدورهم إنهم يقولون في أنفسهم، كيف لهذين الصنفين أن تجمعهما علاقة وحب.

قالـت له رانسـي: اطمئـن فنظرات الطيـور مهما كانت قاسـية فلن تحول بينـي وبينك.

طمأنتـه هـذه الكلمـات التـي قالتهـا وتبسـم كل منهمـا للآخـر، وطلبـت رانسـي منـه أن يعجـل بزواجهـا فلطالمـا انتظـرت هـذه اللحظـة التـي تجمـع بينهمـا، ولكنهـا تفاجـأت بـه عندمـا سـألها عـن التـاج الـذي أوصاهـا ألا تفقـده ليعقـد عليهـا الـزواج بـه.

تذكـرت رانسـي أمـر التـاج، وقالـت لـه: لقـد نسـيته فـي قفصـك عندمـا كنـا معًـا، ثـم سـألته لـمَ لـم تذكرنـي بـه قبـل أن نخـرج؟ وكيـف تريدنـي أن أحملـه طيلـة هـذه المسـافة دون أن أرتديـه؟

كان بـارون قـد طلـب منهـا ألا تلبسـه حتـى يـأذن لهـا، وأمرهـا ألا تضيعـه، فقـد صنعـه من أعشـاب الشـجرة التي ولـد عليها والتـي كما ذكر لهـا أن بهـا مـن رائحة أبيـه وأمه.

طلبت منه رانسي أن يصنع لها تاجًا آخر فالأشجار كثيرة هنا وقالت له: إن في استطاعتك أن تصنع أكثر من تاج، لكن بارون رفض طلبها، وقال لها إن هذه هي عادتهم ولا يستطيع أن يتزوجها دون هذا التاج.

شـعرت رانسـي أنـه يتهـرب مـن أمـر الـزواج بهـا، وقالـت لـه: إن الليـل قـد اقتـرب والمسـافة ليسـت بالقليلـة لنأتـي بـه مـن هنـاك ولـن نسـتطيع أن نعـود قبـل هجـوم الليـل علـى الجزيـرة.

قال لها بارون: ليس لدينا حل آخر، علينا أن نسرع، فما زال لدينا وقت.

كانت رانسي متوجسة خيفة من أن تعود مرة أخرى إلى هناك، وشعرت بشيء في صدرها لا يطمئنها، ولكنها لم تجد حلًّا آخر سوى أن تذهب معه لتأتي بالتاج، ليعقد عليها الزواج به، فلطالما انتظرت هذه اللحظة.

عرض عليها بارون قائلًا: إذا أردتِ أن ننتظر إلى الصباح.. فلا بأس، إن كنتِ لا تودين الذهاب الآن، ولكني لن أستطيع أن أتم زواجي بك الليلة.

كانت رانسي لا تريد أن تؤخر موعد زواجها به، وخافت لو انتظرت حتى الصباح، أن يذهب بعيدًا عنها، أو أن يتغير فجأة فيعدل عن أمر الزواج بها.

سلمت رانسي أمرها وقالت له: سنذهب ونأتي به فما زال هناك متسعٌ من الوقت إن أسرعنا قليلًا.

طار بارون ورانسي متجهين إلى قفصه في شرق الجزيرة...

و قبل أن يصلا بمسافة قليلة سمعا ضجيجًا وشجارًا وأصواتًا قادمة فوقهما من السماء، وعندما رفعا رأسيهما إلى أعلى وجدا نسرًا ضخمًا يصارع الصقر الذي كان يلاحقهما من وقت إلى آخر.

فهبطا سريعًا على شجرة الصفصاف القديمة التي كانت قريبة منهما حتى ينتهي هذا الصراع بينهما.

استمر الصراع بينهما في الهواء حتى أوقعه النسر ونزل به إلى الأرض، وفزعت بعض الطيور الصغار وطار بعضها الآخر من شدة الخوف. لم يتحرك بارون ورانسي من مكانهما واختبآ في عش خال على الشجرة التي كانا عليها، وأطلا برأسيهما ليشاهدا ماذا سيحدث بينهما.

حاول الصقر جاهدًا أن يدافع عن نفسه قدر قوته ولكن النسر كان أكثر منه قوة ووحشية، لذا لم يتركه حتى قضى عليه. لفت انتباه بارون ورانسي أن النسر بعد أن قضى عليه، وقف على جثته الهامدة، وزعق بصوته، ثم انسكبت بعض الدمعات من عينيه. كان ذاك هو النسر الذي تربى بين الدجاجات، فهو لم يكتشف قوته قبل تلك اللحظة التي هجم فيها الصقر على أحد الكتاكيت الصغار، وكل ما فعله النسر وقتها أنه جرى خلفه ليخلص هذا الصغير من بين مخالبه، وعندما اقترب النسر منه لمح في عين الصقر بعض خوف منه، وهذا ما جرأه في أن يستمر في الجري خلفه.

وبمجرد أن جرى النسر خلفه ورفرف بجناحيه.. حمله الهواء، فلم يصدق أنه قادر على الطيران، ولما لحق به قضى عليه دون عناء.

لذا لم يعِ أحد ما سبب تلك الدموع التي انسكبت منه.

هـل كانـت ندمًـا وأسـفًا علـى قتلـه الصقـر، أم كانـت ندمًـا وأسـفًا علـى هـذا الوقـت الطويـل الـذي عـاش فيـه غافـلًا عـن قوتـه، عندمـا قبِل أن يسـلم بأمـره كدجاجـة ضعيفـة تلهـو بيـن الدجاجـات؟! أم كانـت هذه الدمـوع، أسـفًا علـى أنه مـن الآن عليـه أن يعيش وحيدًا وبعيـدًا عمن كان لـه ذكريـات معهم، أم لأنه سـيعيش مـن الآن في أعالي الجبـال، مع القتلة ومصاصـي الدماء مـن الطيور المتوحشـة!

إن أصعـب شـيء علـى الطائر هـو أن يسـلم بحقيقته التـي لا مفر منهـا، عندمـا يُفاجأ بها.

رفـرف النسـر محلقًـا إلى السـماء حتـى اختفى عـن أبصارهم، بعد أن تـرك الصقر جثـة هامدة.

ابتهجـت رانسـي أن الصقـر الـذي كان يلاحقهمـا قـد انتهـى أمـره، وقالـت لبـارون: أرأيـت لقـد كان هنـاك مـن هـو أقـوى منـه.

لكن بارون كان هائمًا في رائحة العش الذي كانا فيه ولم تكن الرائحة التي يحملها هذا العش غريبة عليه لذا لم يكن يود أن يخرج منه.

خرجـت رانسـي مـن العش الـذي كانا فيـه، وخرج بارون هـو أيضًا مخافـة أن يأتـي صاحـب العش على حيـن غفلة.

لـم يسـتطع بـارون أن ينظر إلـى الدماء التي سـالت فوق العشـب الأخضـر فإنها كانـت تزعجه.

قالـت لـه رانسـي: هيـا أسـرع فلـم يتبـق لنا سـوى القليل ثـم طارا سـريعًا حتى وصـلا إلـى البيت...

الساعة الثانية عشرة

فـي السـاعة الأخيـرة أطلـق الحمـام أجنحتـه للهـواء وانطلقـوا في مجموعـات وزينـوا السـماء بألوانهـم الخلابـة البسـيطة وبهديـل أصواتهـم الطيـب، والتفـوا فـي دوائـر ورقصـوا فـرادى وجماعـات، حاولـوا أن يبعثوا روح السـلام إلـى كل نفـس ضالـة وإلـى كل روح شـاردة، حاولـوا جاهدين أن يعلمـوا طيـور الجزيـرة، معنى الحب والتآخي والسـلام، كانـوا متناغمين بعضهـم مـع بعـض، وهـم يحلقـون وظلـوا يغنـون ويشـدون فـي صـوت واحـد، ليطربـوا أهـل الجزيرة المنشـغلين بأنفسـهم وبغيرهم عـن الحياة، كانـوا يعزفـون لهـم اللحـن الغائـب عـن أسـماعهم، الـذي دونـه لـن تنعم أرواحهـم بالحياة.

تمـادى الحمـام فـي حركاتـه البهلوانية لهـم ليلفت انتباههـم إليه، ليبتهجـوا ويفرحـوا ويتحابـوا ويتعايشـوا علـى الوجـه الـذي يسـتحقونه، وتمنـوا لهـم أن يرضـوا بأقدارهم وبغيرهـم، بنفوس نورانيـة يملؤها الحب والخيـر والسـلام، فحلقـوا جميعًـا مودعيـن النهـار الـذي وهـب لهـم النور فأبصـروا، واسـتمدوا مـن نـوره، الجمـال الـذي زينـوا بـه أنفسـهم، وقامـوا بتحيـة الشـمس وشـكروها علـى صمودهـا، كل هـذا الوقـت بجـوار النهار فـي معركتـه التـي لا تنتهي.

كانـت الشـمس قـد أقبلت علـى الرحيـل والنهار قد هـرم، وقدماه بـدت ضعيفتيـن لا تسـاعدانه علـى الوقـوف، واحـدودب ظهـره قليـلًا، ووقـف حامـلًا سـيفه مرتعـدًا ويـداه تهتـزان خوفًـا، ويتصبب وجهـه عرقًا.

وقف وحده ينتظر طاغوت الليل، الليل الذي ما جاء إلا لينتقم منه، ويثأر لنفسه من الضربة التي أودت به، وأسقطته أرضًا لساعات طويلة.

لقد حان الوقت الذي يفيق فيه الليل، ليعود ويستدعي جنوده، الذين فروا في أول المعركة، ويعود الليل حاملًا سلاحه ليبارز به هذا العجوز الذي سوف ينتصر عليه بكل تأكيد.

إن الأوضاع مهما اختلت وفقدت توازنها لفترة من الوقت ففي النهاية حتمًا سيعود كل شيء إلى ما كان عليه، والجزيرة التي أصبحت على شفا حرب، ستعود يومًا بلا طير وبلا وحشية وبلا عداء، وسيعم أرجاءها السلام.

إن العدل الذي كانت تبحث عنه طيور الجزيرة، كان أمام أعينهم ولكنهم هم من تعمدوا ألا يبصرونه، فالعدل لم يغب لحظة عنها، لكن الرضا هو الذي انتزع من قلوب الطير، وحل مكانه الكره والبغض والأحقاد، على الرغم من أنه قد قدر للجميع معيشتهم وأرزاقهم، فإن الصراع الذي يمارسونه بينهم، واضطهادهم للآخر، ما هو إلا عن جهل منهم، فمن المخزي أن يكون هناك صراع على بقاء زائل.

لقد صار الطير لا يهنأ بنومه، فغدا ينام وعيناه مفتوحتان، خشية أن يمكر به إخوته أو مَنْ حوله، لم يعد للثقة مكان في قلوبهم،

بعـد أن انتزعهـا الخـوف منهـم، لقـد بدلـوا اليقين بالشـك، عندمـا احتموا بالجهـل وصدقـوا ظنونهـم، فعوقبـوا بغشـاوة علـى أبصارهـم، لقـد أُعطي كل طائـر منهـم أكثـر ممـا يسـتحق، لكـن الأطمـاع التـي لا حـدود لهـا في قلوبهـم، هـي مـا كانـت تصغّـر فـي أعينهـم كل كبيـر يملكونه.

لـذا سـوف تفنى هـذه الأحقاد يومًا مـا، عندما يغنـي الطير، ويهزم الليـل ويسـطع النـور الأبدي، ويفيض النهار بسـخائه علـى كل من فيها.

قطـع بـارون ورانسـي المسـافة سـريعًا، ولم يضلـوا طريقهمـا إليه، قبـل حلـول الليـل عليهـم فـي السـاعة الأخيـرة مـن النهـار، وعندمـا اقتربا مـن البيـت الـذي كانـا يعيشـان فيـه، وبمجـرد أن نظر بـارون إلـى قفصه.. شـعر بـأن روحه قـد عـادت إليه.

هبـط على سـور الشـرفة هو ورانسـي وقبـل أن ينتقل إلـى القفص أدار وجهـه إلـى شـجرة السـدر التي أمـام قفصه وتأثـر عندما لمـح بعينيه درة زوجـة محـب جثـة هامـدة فـي عشـها، ثـم نظـر إلـى السـماء فوجـد الطيـور التـي أتـت إلـى الجزيـرة صباحًـا تعـود إلـى ديارها مـرة أخرى.

انتقـلا مـن سـور الشـرفة إلـى قفـص بـارون، وشـعرت رانسـي أنها علـى بعـد خطـوة مـن السـعادة، لحظـةَ أن وقعـت عيناهـا علـى التـاج، فالتقطتـه بمنقارهـا سـريعًا وأعطتـه إلـى بـارون ليضعـه علـى رأسـها لكي

تصير زوجة له، وبالفعل أخذه منها وهو يتبسم لها وهم بوضعه على رأسها، وشعرت رانسي أن ثمةَ شيء يريد بارون أن يقوله، ولكنها رفضت أن تسمعه قبل أن يضع التاج على رأسها. وفجأة سمعا صوت طائر يتألم ويستغيث من مكان قريب منهما. فترك بارون التاج جانبًا وقال لرانسي بلهفة: أنه روبين صديقي الذي في القفص المجاور.

نظر بارون إليه قبل أن يخرج من القفص، ليتأكد أنه هو، وبالفعل كان كما ظنَّ ووجده ملقى على الأرض بداخل قفصه غريقًا في دمه.

أسرع بارون وخرج من قفصه، فتبعته رانسي، وأول ما جاء أمام قفصه دفع الباب دفعة خفيفة ففتح بسهولة ثم دخلا.

لفت انتباه رانسي أن باب قفص صديقه روبين أيضًا كان مفتوحًا، فلم تعقب على ذلك، ولكن ساورها الشك.

دخل بارون ورانسي ورائه واقتربا من روبين.

كان روبين ذو اللون الأبيض والقلب الأبيض صديق عمره، الذي انشغل عنه منذ أن جاءت رانسي إلى القفص الذي أمامه، كان يشبه كل منهما الآخر في أشياء كثيرة ما عدا اللون فكان لكلٍّ لونه الخاص الذي يميزه.

بـدا علـى روبين أن جناحه مكسـورًا وهناك دم يسـيل منه، ووجهه كان شـاحبًا وظهـر عليـه أنه في نزْعِـه الأخير، وأن الموت قـد اقترب منه.

كان بـارون قـد سـمع مـن قبل عن المـوت بأنه طائر شـرير، لا لون لـه، وأنـه مثـل الهـواء لا يسـتطيع أحـد أن يـراه، يأتـي دون ميعـاد، فيقتل مـن أراد أن يقتـل ويفـر دون أن يمسـك بـه أحـد، وأنه ليس علـى الجزيرة طائـر أقـوى منـه فيسـتطيع أن يخلـص الجزيـرة من شـره، نظر بـارون إلى القضبـان المفتحـة مـن حوله، وخيل إليه أنه الآن سـيمر مـن بينها دون أن يـراه أحـد، وخطـر فـي باله فكـرة أن يغلق البـاب ولكنه عاد وقال لنفسـه:

ولـو أغلقـت البـاب.. فهذا لن يعجـزه، فهناك ألف طريقة يسـتطيع أن يدخـل بها.

سأله بارون والحزن يملأ صدره وقال: ماذا حل بك يا صديقي؟

أجابـه روبيـن فـي صعوبة مـن جراء الألـم الذي تجرعه وقـال: لقد كنـت مريضًـا منـذ عـدة أيـام ولـم أرد أن أخبـرك، عندمـا وجدتك مشـغولًا مـع رانسـي، فلـم أرد أن أفسـد عليكما ما بدأتُما فيـه، أو أن أقطع الحديث الـذي كان بينكمـا، وعندما اشـتد بي الألم، شـعرت بأني معافًـى تمامًا، وأنْ لا قضبـان حولـي، ففردت أجنحتـي ورفرفت بكل قوة، وطـرت فاصطدمت فـي القضبـان فوقعت وكسـر جناحـي كما ترانـي، إنها النهايـة يا صديقي

لقد تحملت من أجل صغاري ما لا يتحمله طائر، وأظن أنه قد آن الأوان لأغمض عيني وأستريح.

دمعت أعين بارون ورانسي لحديثه المؤلم ثم قال له بارون: لمَ لم تدفع بابك وتهرب من هنا؟

رد عليه روبين قائلًا: إلى أين؟

نظرت رانسي إلى بارون في غضب عندما علمت من حديثه الذي وجهه إلى روبين أن الأبواب لم تكن مغلقة عليهم فسألته:

إذا كانت الأبواب لم تكن مغلقة من البداية لماذا لم تخبرني بذلك منذ يومي الأول؟

لم يرد بارون عليها وناب عنه روبين وقال لها: ليس هنا أي أبواب مغلقة يا رانسي، فلقد رأيتُ بارون فجر اليوم قبل أن تستيقظي من نومك، عندما خرج من قفصه ودفع بباب قفصك قليلًا، ليظهر لك أنه مفتوح، إنه كان يتألم لوجودك في هذا القفص عندما كنتِ تشتكين له، فقرر بعد أن اطمأن أنك تعافيتِ، أن تعودي إلى حياتك، قبل أن يتعلق أحدٌ منكما بالآخر، فإنَّ من عاش عمره حرًا، لن يستطيع أن يعيش سجينًا ليوم واحد.

كان روبيـن يتكلـم بصعوبة، وحـاول بارون أن يمنعـه عن الحديث لكـي لا يتألـم أكثـر، ولكنه رفض وأكمـل قائلًا:

إن سـيد المـكان لـم يغلـق بابًـا علـى أحـد منا، كمـا كنـتِ تظنين، إنـه فقـط أغلقـه دون أن يضـع قفـل عليـه، ليتيح الخيـار للجميـع، إذا هم أرادوا البقـاء معـه أو أرادوا أن يتركـوه، لـذا حماهـم بـه ولكنـه لـم يشـدد عليهـم ويسَّـر لهـم أمـر الاختيـار فـي ذلـك، لأنه فـي الحالتيـن يحبهم.

و أنـه مـا أغلقـه إلا ليحمينـا مـن الطيـور الجـوارح، التي قـد تهجم علينـا إذا مـا رأت البـاب مفتوحًا علـى مصراعيه، وحتى بعدمـا تعافيتِ، لم يـرد أن يفتـح لـك البـاب، لعلـك إن رأيتِـه يفعـل ذلـك ظننـتِ أنـه يطردك، وهـذه ليسـت مـن صفـات الكريـم، وكيـف للكريـم أن يطـرد ضيفـه وهو الـذي يملـك طعامه وشـرابه؟

شـعرت رانسـي أنهـا انخدعـت فـي بـارون وأنـه لـم يكـن يحبهـا بالقـدر الـذي تسـتحق، وأنـه ما فتـح لهـا البـاب إلا ليجعلها تذهـب بعيدًا عنـه، ولكنهـا هـي التـي لـم تـعِ ذلـك منـذ البدايـة، وأن مـا جعـل بـارون متماديًـا معهـا فيمـا كانـت تجبره عليه، ليس سـوى من أجـل أن لا يغضبها فيشـعر بعدهـا بالذنـب تجاهها، لـذا لم يـأتِ بها إلـى هنا من أجـل التاج المزعـوم، بـل ليضعهـا أمـام الأمر الواقـع، ويودعها من قفصـه اللعين الذي سـيحتمي به.

قـررت رانسـي وهـي تحـاول ألا تبـدو ضعيفـة أمامـه بـأن توقـف شـلال الدمـع الـذي يفيـض من عينيهـا، لتحافظ علـى ما تبقى مـن كرامتها وأن تذهـب مـن حيـث أتت.

لـم ينطـق بـارون بكلمـة عندما سـألته وهي منهـارة: لـمَ خدعتني وفعلـت معـي كل ذلـك إذا كنـت لا تريدنـي مـن البداية؟

وضـع بارون رأسـه فـي الأرض خجلًا منها، فعلمـت إجابته من دون أن يتكلـم، ثـم ذهبـت نحـو البـاب ونظـرت إليـه نظـرة أخيـرة ثـم رحلـت عنـه دون أن تودعـه بكلمة.

لـم يحـاول بـارون أن يتمسـك بهـا فقـد كشـف روبيـن الأمـر كلـه، ووفـر بذلـك عليـه مـا لـم يكـن يعـرف كيـف يقولـه لها.

انزعـج روبيـن وتأسـف لبـارون علـى مـا صـدر منـه لأن كلماته قد تسـببت فـي رحيل رانسـي عنـه إلى الأبد، لكـن بارون قال لـه: هون عليك يـا صديقي ولا تجهد نفسـك.

طارت رانسي وهي مكسورة وحزينة على هذا الحب الذي هدمه بارون في لحظة دون أي مراعاة لشعورها، وبعد مسافة قليلة من الطيران قابلتها صديقتها إيلينا، فأوقفتها وقالت لها: إن الظلام قد حل وأمرتها أن تهبط على أقرب شجرة لهما ثم يواصلان الطيران في الصباح.

هبطا معًا، وقالت لها إيلينا: أعرفتِ الآن إجابة سؤالك، عندما قلتِ لي وأنا عائدة من عنده بعينين دامعتين وكنت وقتها تسألينني وأنت تضحكين: لمَ كل هذا الدمع؟! وأكدتِ لي أنه لا يوجد ذكر على هذه الجزيرة يستحق أن تدمع أنثى من أجله.

فها أنا أعيد عليك سؤالك بغير ضحك بل أنا أشاركك الدمع: هل يوجد على هذه الجزيرة ذكر يستحق أن تبكي لأجله؟ بكت إيلينا على بكاء صديقة عمرها رانسي وضمتها إليها لتخفف عنها أوجاعها.

لقد كانت إيلينا صديقة رانسي، ورانسي هي التي ألحت على إيلينا أن تعرفها إياه، لتسقيه من الكأس نفسها التي سقى إيلينا منها، فرفضت إيلينا كثيرًا أن تطيعها فيما تريد مخافة عليها أن يصيبها ما قد أصابها من قبل، لكن إيلينا استسلمت في نهاية الأمر وأخبرتها بمكانه، وظلت إيلينا دائمًا على قرب منها خشية أن يحدث لها مكروهًا فكانت دائمًا تتابعها وتقدم لها العون من بعيد، أما رانسي المسكينة فقد انفطر قلبها من البكاء، لأنها وقعت في الفخ الذي نصبته له وبدلًا من أن تجعله يعشقها، عشقته هي.

كان روبين يلتقط أنفاسه الأخيرة بصعوبة بالغة، وظهر على وجهه هالة من نور، فتأكد بارون أنه طائر الموت الذي جاء ليأخذه إليه، فهذه هي علاماته.

تمسك بارون بروبين وضمه إليه بجناحيه وبكى بشدة عليه. ثم قال له روبين: كنت أتمنى ألا أموت بعيدًا عن أهلي، لكن الأمر قد نفذ، ولا أريد سوى أن أخبرك بشيء قبل رحيلي.

ظن بارون أنه سيتأسف له مرة ثانية بسبب فقدانه لرانسي، فقال له بارون: لا عليك يا صديقي، لا ترهق نفسك.

فقال روبين له: إني لا أريد منك أن تجني على سيدك أو تظن به سوءًا، إنه يحبك، ولولا ذلك ما احتفظ بك عنده، فأنت تعلم أنك عصفور بريّ لا لون لك، وهذا النوع الذي أنت منه، لا يقتنيه أحد، فعليك أن تفرح بوجودك معه.

وإن الذي جعل سيدك يبعد زوجتك عنك، لا شيء سوى أنها كانت مريضة، فخشى أن ينتقل المرض منها إليك، فيضرك مرضها بسوء، وكان علاجها الوحيد هو أن تعيش في الهواء الطلق تحت ضوء الشمس وإن كان هذا لن يجعلها تبرأ تمامًا لكنه قد يمدها بقليل من العمر، حتى صغارك أيضًا أصيبوا بما قد أصيبت به أمهم، لذا أخذهم معها ووضعهم برفق فوق عش على شجرة الصفصاف القديمة، لكي لا تعيش ما تبقى لها وحيدة.

ثـم أوصـاه روبيـن وطلـب منـه بألّا يضيـع عمـره هبـاء وأن يحاول أن يجـد طريـق سـعادته. وقـال لـه: إنـي رأيـت فـي المنـام منـذ يوميـن أن زوجتـك وأولادك قـد انقـض عليهـم طائـر المـوت منـذ فتـرة وأن هـذا الهدهـد الـذي يأتيـك يتلاعـب بـك ويسـتغلك مـن أجـل أن يسـد حاجتـه.

كانـت هـذه آخـر الكلمـات التـي نطـق بـه روبيـن قبـل أن يفـارق الحيـاة، وظـل بـارون بعـد أن أصبـح جثـة هامـدة يبكـي عليه وعلـى حاله بشـكل هسـتيري ثـم نظـر إليـه بـارون نظـرة أخيـرة وقـال: مـا أصعـب أن يعيـش الطائـر عمـره كلـه وحيـدًا ثـم يمـوت غريبًا!

طبـع بـارون قبلـة علـى رأسـه ثـم خـرج مـن قفـص روبيـن حزينًـا يتألـم، وعـاد إلـى قفصـه وأغلـق بابـه عليـه وذهـب إلـى حجرتـه ليريـح جسـده مـن عنـاء هـذا اليـوم الطويـل، اليوم الـذي حل فيـه الظـلام أخيرًا، ليهـب الراحـة والسـكينة لـكل مـن عانـوا وأرهقـوا فـي نهـار يومهـم.

البداية

فـي صبيحـة اليوم التالي بعد أن أشـرقت الشـمس وعـاد النهار إلى الحيـاة مـرة أخرى، وتنفـس الصبح كعادتـه بأنفاس الحياة، اسـتيقظ بارون مـن نومـه متأخـرًا، ثـم هبـط مـن حجرتـه ليسـتقبل يومًـا جديـدًا، بذهـن صـافٍ ونفـس راضيـة، وأمسـك بالتـاج ونظـر إليه وتبسـم ثم نظـر من بين السـياج إلـى القفـص الـذي كانت تسـكنه رانسـي من قبـل، فتفاجـأ عندما وجـد فيـه عصفـورة زرقـاء تشـبه ملائكـة السـماء، حياهـا بـارون وألقـى عليهـا السـلام وتبسـم كل منهمـا للآخر.

ثم دار بينهما هذا الحديث الآتي:

بارون: صباح الخير أيتها الأميرة الحسناء.

العصفـورة الجديـدة: أتسـخر منـي؟ لقبتنـي بالأميـرة، وأنـت تعلم أن مـا أسـكنه الآن ليـس بقصـر.

– لا تدعي هذه الأمور تزعجك، فهذا لن يقلل من قدرك في عيني.

= ما اسمك ؟

– بارون المتيم بك. وأنتِ؟

= إينـدي عصفـورة سـابقًا وأميـرة حاليًـا، كمـا ذكـرت أنـت، أليـس كذلـك؟ ومـا هـذا الشـيء الـذي تصنعه؟

- إنـه تـاج مـن قـش، تعلميـن أنَّ علـى الأميـرات الجـدد أن يحصلـن علـى تـاج مثلـه، ليتميـزن عـن غيرهن.

= وهل للأميرة الحق في أن تطمع أن ترتديه؟

- وهل صنع إلا من أجلها؟!

تمت

الفهرس

الساعة الأولى ٧

الساعة الثانية..... ٢٧

الساعة الثالثة..... ٤١

الساعة الرابعة ٥٩

الساعة الخامسة..... ٨٣

الساعة السادسة ١٠١

الساعة السابعة..... ١١٩

الساعة الثامنة ١٣٩

الساعة التاسعة..... ١٥٧

الساعة العاشرة..... ١٧١

الساعة الحادية عشرة ١٨٩

الساعة الثانية عشرة ٢٠٣

البداية..... ٢١٧

دار فهرس للطباعة والنشر والتوزيع

بنها – القليوبية – بطا – أعلى القرية الفرعونية

٠١٢٠٨٨٩٥٦٦٠

info@fyhres.com

www.fyhres.com

رقم الإيـــداع : ٢٦٧٩٢ /٢٠١٦

الترقيم الدولي : ٨-١٠-٦٥٥٤ – ٩٧٧-٩٧٨

أطلِقوا الطَّير

إن الأوضاع مهما اختلت وفقدت توازنها لفترة من الوقت ففي النهاية حتمًا سيعود كل شيء إلى ما كان عليه، والجزيرة التي أصبحت على شفا حرب، ستعود يومًا بلا طير وبلا وحشية وبلا عداء، وسيعم أرجاءها السلام.

ISLAMFARID.NET

فهرس للنشر والتوزيع